معوقات السلام في المسرح المعاصر

ـ دراسة مقارنة ـ

الدكتور

أحمد عباس عبد الحميد أحمد سلام

مقدمة:

يمر الإنسان خلال حياته بأطوارٍ مختلفة؛ فتارةً يغترب مع مجتمعه، وأحيانًا يعجز عن التوافق الذاتي، وتحقيق التوازن بين العاطفة والعقل فيوغل في الانحياز لأحدهما ويُغْفِل الآخر، مما يفضي به إلى الغربة مغادراً مجتمعه، وإنْ عاد للانخراط في مجتمعه دون أنْ يُغَيِّرَ ذاتَه استمر اغترابه، فلا يجد مناصًا من الانكفاء على ذاته ثانيةً. أما إنْ تَغَيَّر المجتمعُ ليقتربَ مِنْ طبيعتِه، أو العكس، حدث شيءٌ مِنْ التوافق يُمَكِّنه مِنْ الانخراط في ذلك المجتمع.

وتارةً ثانيةً يتمردُ على مجتمعه عندما يعجَزُ عن التوافق معه، فيخرج على نسقِ الجماعةِ ويقاوم التنميطَ، إلى أنْ ينجحَ في تغيير وضعيته المجتمعية، محققًا التقبل المجتمعي لوضعِه الجديد، أي ينجحَ في إحداثِ حراكٍ مجتمعيٍّ على شاكلةٍ أقرب للثورة.

فلا يبقى مِنْ سبيلٍ أمام الإنسان إلا اللجوءُ إلى "ثقافة السلام"، والانتقال مِنْ ثقافة الصوتِ الواحدِ – المعبرةِ عن التنميط – إلى ثقافةِ تَقَبُّلِ الآخر، وتعدد الآراء، والتسامح، لكن هناك معوقات تحول دون السلام.

هذه المعوقات هي غاية هذه الدراسة، إلا أنَّه لا بُدَّ مِنْ وقفةٍ مدخليةٍ قبلها عند:

مدخل: كون السلام قرين الحق في الاختلاف:

لقد سمَّى الله تعالى نفسه السلام؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الحشر، الآية (٢٣)]، **وجعل الجنة داراً للسلام؛** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة يونس، الآية (٢٥)]، **فالسلام يدعو البشرية إلى دار السلام .. الأمن .. الأمان .. الاطمئنان .. الجنة التي يُحَيِّي أهلها بالسلام؛** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا

كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الأحزاب، الآية (٤٤)]، **والسلام هو التحية التي ارتضاها الله للبشر في الدنيا، رغبةً منه في أنْ يَعُمَّ السلامُ الأرضَ، وهي تحيةٌ قديمةٌ، حيَّت الملائكة بها أبا الأنبياء إبراهيم:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾** ﴾ [سورة الذاريات، الآيتان (٢٤، ٢٥)]، **وتحية السلام ليست قولًا يُقال باللسان بل سلوكٌ عمليٌّ وضحته السنة؛ يقول النبي ﷺ:** «المسلمُ مَنْ سَلَمَ المسلمون مِنْ لسانِه ويدِّه، والمؤمنُ مَنْ أمنه الناسُ على دمائهم وأموالهم»[(١)].

فهي تتحول إلى ممارسةٍ، يمتنع على أثرها الإنسان مِنْ إيذاء الناس بالقول؛ مِنْ سبٍّ وغيبةٍ ونحوه، وبسطِ يده إليهم بالسوء، مِمَّا يُحَقِّقُ الأمنَ معيار السلام الاجتماعي؛ فلا خوفَ على النفسِ، ولا على المالِ مِمَّنْ يَتَّصِف بالإيمان. وهو ليس حقًا لفئةٍ مِنْ فئاتِ المجتمعِ دون أخرى، ولا للأغلبية على حساب الأقلية، بل جعله النبي الكريم ﷺ ضمانًا لغير المسلمين، يقول رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى جعل السلام تحيةً لأمتنا وأمانًا لأهل ذمتنا»[(٢)]، **وفَصَّلَ حقَّ الأمنِ لغيرِ المسلمين في قوله الشريف:** «ألا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ منه فأنا حجيجه يوم القيامة»[(٣)]. **و كل مَنْ ينطق بتحيةِ السلام فهو في ضمانِ الله، بغض النظر عن عقيدته؛** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا۟**

(١) حديث صحيح، أخرجه الأئمة أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير): محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المجلد الثاني، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، حديث رقم ٦٧١٠، مجلد ٢، ص ١١٣٧.

(٢) أخرجه الأئمة البخاري والبيهقي والطبراني، عن أبي أمامة، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، القاهرة، دار الريان للتراث، كتاب الاستئذان، باب ٢٠.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الإمامان أبو داود والبيهقي عن صفوان بن سليم، عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم، الألباني، السابق نفسه، حديث رقم ٢٦٥٥، ج١، ص٥١٨.

﴿ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [سورة النساء، من الآية (٩٤)]، **وهذا يجعله معصوم الدم والمال.**

بل إنَّ "كلمة الإسلام مشتقةٌ مِنْ مادة السلام؛ لأنَّ الإسلامَ والسلامَ يوفران الأمن والطمأنينة والوئام والسكينة ولذلك جعل الدينُ تحيةَ السلام شعار المسلمين ليوجه الأفكار والأنظار إلى رغبته الملحة في السلم وإلى تحقيق الجو النفسي والديني للمسالمة الدائمة، فإنَّ قضية السلام هي قضية الإسلام ودعوته ومنهاجه ورغبته وأمله وبغيته"(٤).

وثقافة السلام التي تسمح للآخر بالوجود، وتَكْفُلُ له حقوق المواطنة تتضمن إقرار حق الاختلاف الذي هو مِنْ سنن الله في خلق الكون؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [سورة هود، الآيتان (١١٨، ١١٩)].

فالخالق سبحانه أبى التنميط لعباده، ورَضِيَ لهم الاختلاف حتى تكون لكل منهم شخصيته المستقلة؛ لذا تُهجى الجماعة بأنَّ أفرادها "حُص اللحى متشابهو الألوان" **تنعدم بينهم الفوارق النوعية المميزة؛ فهذا يحطُّ مِنْ الجماعة ويقربها مِنْ درك الحيوانية، بقدر ما يبعدها عن الإنسانية، لأنَّ** "الاختلافَ أساسُ التقدم، والتنوع في الاجتهادات أول الإضافة، والتمايز بالجديد الواعد علامة الإبداع الذي تتقدم به المعرفة والإبداع على السواء ..... لأنَّ في الاختلاف قوةً ...، وعونًا على معرفةِ عيوبٍ وأخطاءٍ وثغراتٍ، ما ظللت تؤمن بأنَّ ما أنجزته– مهما كان– لا يكفي، وأنَّ عليك أنْ تُضِيْفَ– دائمًا– إلى ما تفعل، لا بمنطق أنَّه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وإنما على سبيل حتمية التطوير المستمر، الذي لا يتحققُ إلا بحريةِ النقدِ، وحقِّ الاختلاف الذي يتسع بأفق الرؤية.."(٥)

وهذا الاختلاف لن يحقق غاياته، من التلاقح الفكري المؤدي إلى التقدم إلا مِنْ خلال التعارف مع الآخر وتقبُّلِه، انطلاقًا من قول الخالق ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

(٤) محمديات: محمد مصطفى ضبش، الإسكندرية، دار لوران للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص ٥٢.
(٥) نحو ثقافة مغايرة: جابر عصفور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م، ص ٩١، ١١٥. (بشيءٍ من التصرف).

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، من الآية (١٣)]، **الخالق الذي قضت حكمته بتفرده واختلافه عن كل مخلوقٍ، وكذا جعل خلقَ الإنسانِ يتطَلَّبُ اختلافًا بين نوعين ذكر وأنثى** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [سورة آل عمران، من الآية (٣٦)].

"و هذا إيذانٌ للعالم كافةً في جميع بقاع الأرض، متحضريهم ومتبديهم، بأنَّ الله لم يخلقْ العالمَ ليتخالفوا ويتناحروا، ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا على قطعِ مفاوزِ هذه الحياةِ، وعلى التأدي إلى وجودٍ كريمٍ يليقُ بمكانةِ الإنسانيةِ. وهذا التعارفُ وما يستدعيه مِنْ التعاونِ والتكافلِ يقتضي كلَّ الصفاتِ الجليلةِ التي دعا إليها القرآن مِنْ المساواة في الحقوق، والعدل في الأحكام، والرحمة بالضعفاء، والأمانة في المعاملات. وهي أصولٌ قد تعذر تعميمها في العالم ..، فقد كان التعصب الأعمى للأديان والقوميات يمنعُ الناس من الدخول في مثل هذا العهد من السلام العام ... شعور عالمي يشمل الإنسانية جمعاء"(٦).

هذا السلام العام له معوقاتٌ على رأسها التعصبُ بكافةِ صورِه وأشكالِه؛ ومنها: رفض الآخر أو تماهيه في الذات، وتضخم الذات (الأنانية والفردية)، وإصرار السلطة على إخضاع المواطن لها، والطمع فيما لدى الآخر. وهذا كله يختزل في تقييد الحريات وانعدام ثقافة الاختلاف.

(٦) من معالم الإسلام: محمد فريد وجدي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١١٢.

معوقات السلام ومظاهر اختلاله

١-الحروب، والسعي لغزو الشعوب الأخرى:

ربما تعد الحروب من أبرز المظاهر المعبرة عن تعطيل السلام، وهناك ما يعبر عن ذلك في النصوص المسرحية محل الدراسة؛ ففي "هبط الملاك في بابل" يسعى كلُّ مَلِكٍ يعتلي العرشَ لغزو البلاد الأخرى:

"الملك : مادامت قواتي في الشمال قد وصلت إلى لبنان، وفي الجنوب قد بلغت البحر، وفي الغرب زحفت على الصحراء، وفي الشرق لامست سلاسل الجبال، إذن فقد غزوت العالم كله.

رئيس الوزراء: باسم الحكومة ..

كبير الكهنة : وباسم الكنيسة ..

القائد : وباسم الجيش ..

الجلاد : وباسم العدالة ..

الجميع : نهنئ صاحب الجلالة على النظام الجديد الذي وضعه للعالم كله ..

(وينحنون جميعًا..)"(٧)

إنَّ المَلِكَ ضيقُ الأفقِ ضئيلُ المعرفةِ؛ فهو يظنُّ أنَّ العالم كله لا يزيد عن شبه الجزيرة العربية، وأنَّه متى أخضعها فقد غزا العالم كله، وهذه الرغبةُ في غزو العالم تكشفُ عن نفسٍ مريضةٍ متضخمةٍ، تسعى لتعويض نقصِها الداخليِّ باجتياح العالم، ممَّا يعني رفضَه لأيِّ وجودٍ آخر، إنَّه لا يريدُ أنْ يرى أيَّة سلطةٍ منافسة، أو حتى مكافئة له، إنَّه يريدُ أنْ يكونَ القطبَ الأوحدَ الذي تدورُ حولَه الأفلاكُ. وهذه أعلى مراتبِ العصبيةِ؛ لأنَّ "العصبيةَ بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، .... وأمَّا المُلْك فهو التغلب والحكم بالقهر، وصاحب العصبية إذا بلغ إلى

(٧) هبط الملك في بابل: فريدريش دورنيمات، ترجمة أنيس منصور، القاهرة، ضمن مجلة المسرح، ع ١٩، يوليو ١٩٦٥م، تصدر عن مسرح الحكيم بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، ص ١٤٠.

رتبةٍ طلبَ ما فوقها، فإذا بلغ رتبةَ السؤددِ والاتباعِ ووجدَ السبيلَ إلى التغلبِ والقهرِ لا يتركه لأنَّه مطلوبٌ للنفس، ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعًا فالتغلب الملكي غاية للعصبية، .... ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبَتْ بطبعها التغلبَ على أهلِ عصبيةٍ أخرى بعيدة عنها ... وطلبَتْ غايةً من التغلبِ والتحكمِ أعلى من الغايةِ الأولى وأبعدَ، وهكذا دائمًا .... فقد ظهر أنَّ المُلْكَ هو غايةُ العصبيةِ، وأنَّها إذا بلغت إلى غايتها حصل للقبيلة المُلْكُ إمَّا بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك"[٨].

وعلى هذا فكلُّ نصرٍ يزيدُ المنتصرَ توحشًا، وطمعًا فيما في أيدي غيره مِنْ أراضٍ ينازعه إلى أنْ يحصلَ عليها، دون شبعٍ كشاربِ الماءِ المالحِ يزدادُ ظمأً، ولا يكتفي إلا حين يَظُنُّ أنَّه ساد العالمَ، كما حدث لملك بابل.

وإذا كان تأييد رئيسُ الوزراءِ للملك - مداهنةً وتملقًا - طبعيًا، حفَاظًا على مركزه وكذا الأمر مع قائد الجيوش؛ إذْ لا يعقلُ أنْ ينتقدَ نصرًا نَفَّذَتْهُ الجيوشُ التي يَقُودُها، وإلا كان هذا إقرارًا منه بعصيان الأوامر الملكية من جانبٍ وعدمِ صلاحيته لتولي قيادة الجيوش التي تحقق نصرًا ليس هو شريكًا فيه فلا حاجةَ للجيوشِ إليه، فإنَّ تأييدَ الجلادِ للنصرِ باسمِ العدالةِ مستغربٌ؛ إذْ ما علاقةُ الجلادِ منفذُ الأحكامِ بالعدالة؟ إنَّ الأقربَ إلى تمثيلِ العدالة، هو القضاءُ الذي يقيمُ العدلَ بأحكامه لا الجلاد الذي ينفذها - بما لا ينفي دورا الجلاد في إكمالِ العدالة - والأغرب تأييد الكاهن لهذه الغزوات باسم الكنيسة، التي تدعو إلى المحبة بين البشر والتسامح؛ ففي الإنجيل: "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصَلُّوا من أجل المفترين الكذب عليكم"[٩]، **أو لعل "دورينمات" يشير إلى ما يحدث أحيانًا مِنْ سَيْرِ السلطة الدينية في ركاب السياسة، وتأييدها للقرار السياسي، وصبغه بسمتٍ ديني بالحقِ وبالباطل، والحادث الأشهر في ذلك الصدد،**

(٨) تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر): عبد الرحمن بن خلدون، ج١ (المقدمة) القاهرة، هيئة قصور الثقافة، (مصورة عن طبعة بولاق ١٢٨٤هـ)، ٢٠٠٧م، ص ١١٧.

(٩) الكتاب المقدس، بيروت، دار الكتاب المقدس،د/ت، العهد الجديد، إنجيل لوقا، الإصحاح ٦، الآيتان ٢٧، ٢٨.

الموقف المشين لأحد آباء الكنيسة، وتأييده للحروب الصليبية، مما اضطر الكنيسة إلى الاعتذار عن ذلك لاحقًا، والتبرؤ منه.

هذه البطولة الزائفة التي يسعى إليها الأباطرة يدركها الشحاذ البابلي:

"عاقي: ..... إنَّ أبطالَ بابل هم قتلةٌ ممتازون للشعوبِ التي غزوناها. أما الأطباء فليسوا كذلك"(١٠).

إنَّه يكشفُ التناقضَ الغريبَ بين مَنْ يقتل شعوبًا أخرى، تُغزى، وتُسلب حريتها بكلمةٍ منْ لسانه، ومع ذلك يُخَلَّده الشعبُ لما سفكه منْ دماء الآخرين، هذه الدماء المسفوحة لو كانت لأبناء الشعب لثاروا عليه وعدّوه جزارًا أثيمًا، هذا وجهٌ لتلك المفارقة، والوجهُ الآخرُ هو التناقضُ بين خلعِ سيماء البطولة على القتلة المتوحشين، مع أنَّ الأطباءَ هم الذين يُنْقِذُون البشرَ، بمعاونتهم على الشفاء، والحفاظ على حياتهم ... هؤلاء لا نصيبَ لهم بين الأبطال، بل إنْ فَشِلَ أحدُهم في علاجِ مريضٍ دون تقصيرٍ منه نُكِّلَ به. هذه المفارقةُ توقظُ المتلقيَّ في قسوةٍ ليُعيْدَ حساباته وتقييمَ مفهومِ البطولة، بشكلٍ يسمحُ بتقويمه وتعديله. إلا أنَّ هذه الوحشيةَ التي تمتلئ بها نفسُ المَلك البابلي تنضح في زينة قاعة عرشه:

" (ليس من الضروري البقاءُ طويلًا في قاعة العرش، ... إنَّها فخمةٌ. وفيها مظاهر القسوة أو الوحشية. وتوجد بها أسلحةٌ داميةٌ تدل على وحشيةِ الإمبراطور، أو الأباطرة جميعًا ... والعرش على اليسار مرتفعٌ عن المسرح بعدة سلالم ...)"(١١).

إنَّ الملكَ يستمدُ قوتَه منْ خارجه منْ الأسلحة البشعة التي تزخرُ بها قاعةُ العرش، ولعل وجودَها وسيلةٌ لإرهابِ كلِّ مَنْ يخالفه، حتى يخرس، فلا يجرؤ على النطق بما يخالف رأيَّ الملك، لأنَّ الرسالةَ الضمنيةَ هي أنَّ مصيرَه مرهونٌ بتلك الأسلحة التي يمكنُ أنْ تسيل دماءه؛ فالحاكمُ يعوضُ ضعفَه الداخلي بها، وبها يحافظُ على موقعه بالوحشية، فهو إذن أكبرُ عدوٍ للسلام.

أما ارتفاعُ العرشِ عن البلاط، يتضمن دلالاتٍ عدة: إذ أنّ ارتفاع العرش عن القاعدة حتى يحتاج قاصده إلى ارتقاء سلالم يترتب عليه التباعد على المستوى الرأسي - حال علوه الحسي عن محدثه- الممثل في ارتفاع العرش، مما يجعل

(١٠) هبط الملاك في بابل، السابق نفسه، ص ١٤٩.

(١١) هبط الملاك في بابل، السابق نفسه، ص ١٥٩.

الملك دائمًا يخاطب محدثه من علٍ، وهذا الفاصل بينهما يحصّنُ رأي الملكِ ويرسخ تعاليه على رعيته وتباعده عنهم، وشعوره بالاستعلاءِ، ويعكس تضخم ذاته المرضي، ويؤكد على الإحساس بالدونية الذي يملأ وجدانه؛ فهو يريد أنْ يكون أعلى من غيره، و كأنَّه يستعيض بالعلو المادي عن الدناءة النفسية.

كل ما تتقدم يبعد الملك عن سيماء الإنسانية، ويجعله غريبًا فاقدًا لأدنى تعاطف نحوه، ويبرز الانفصام الكامل بينه وبين شعبه، مِمَّا يكشفُ عن أنَّ العلاقةَ بين الحاكمِ والمحكومِ لم تتأسسْ على المحبةِ والوئامِ المحققِ للسلامِ، بل على التسلطِ والخصامِ.

وهذا السلوكُ العدوانيُّ هو ديدن أباطرة "بابل"؛ فالسلطةُ تنتزعُ انتزاعًا لا تُتَدَاول، مِمَّا يكشفُ عن روحِ التعصبِ السائدةِ التي نبَّه إليها ابن خلدون- فيما تقدم، و كلُّ ملكٍ يسعى لمزيدٍ من الحروبِ الخارجيةِ لتوسيعِ الرقعةِ الخاضعةِ لسلطانه:

" (وينتهز نمرود هذه الفرصة و يجلس على العرش)

نـمرود : جيوشي ستغزو فورًا.

رئيس الوزراء: مستحيل يا صاحب الجلالة. لقد دَخَلَتْ كلَّ قرى لبنان ولم يبق من الجيش كله سوى خمسين من حرس القصر.

أوتـنـا : لقد أصبحت بغداد ضحية للرغبة العنيفة في السيطرة وغزو العالم"(١٢).

إنَّ تداولَ السلطة في بابل يقتصر على الملك ونمرود، وبشكلٍ يعتمدُ على الغَلَبَةِ، فمَنْ يتمكن من الجلوس على العرش يتولى الحكم، وينزل الآخر ليصيرَ عند قدمي الغالب، والسلامُ مُفْتَقَدٌ، حتى تبدل الحاكم لا يتم إلا قسرًا.

والشغل الشاغل لكل ملك هو الغزو والسلب والقهر، لا السلام، فإذا ما اعتلى النمرودُ العرشَ فأول ما يفكر فيه الجيوشَ الغازيةَ باسمِه، تخليدًا له وبحثًا عن بطولةٍ زائفة.

ورئيسُ الوزراءِ ينبِّهُ إلى أنَّ مزيدًا من الغزوات مستحيلٌ؛ فلا جنودَ في المملكة إلا خمسين لحماية القصر، والأمنُ السياسيُّ هو الأساس، لا الأمن

(١٢) هبط الملاك فى بابل، السابق نفسه، ص ١٦٥ .

الاجتماعي، أمن السلطة لا المواطن، مِمَّا يؤكد على أنَّ العلاقة بينهما لم تتأسس على السلام.

وانشغال السلطة بتمجيد الذات بغزوٍ خارجيٍّ، على حسابِ الشأنِ الداخليِّ؛ فليس هناك عددٌ من الجنود يكفي لمواجهةِ أيِّ صدعٍ ينتج عن غزوٍ من عدوٍ أو حتى حفظ الأمن الداخلي مما ينذرُ بانتشار السلب والنهب في المملكة دون رادعٍ.

والكاهن الأكبر يدركُ أنَّ الخاسرَ مِنْ عملياتِ الاستعمار الخارجيةِ هو بابل *، لكنَّه ينطقُ بكلامِه هذا بشكلٍ شبه فردي، دون أنْ يسعى حتى لكسبِ تأييدِ الآخرين لفكرتِه، ولا لتحويلِها إلى عملٍ يوقف به الغزو ويُحِلّ السلامَ في سلبيةٍ مقيتةٍ، أو ربما هو يعمل من أجل ذاته لا لصالح شعبه. وتلك خيانةٌ لأمانةِ مهمته - وهو رأس الكنيسة في بابل - توقعه تحت طائلة العقاب الناتج عن ارتكاب النهي الإلهي من المخالفة بين القول والعمل؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [سورة الصف، الآيتان (٢، ٣)].

وحين أدرك ملكُ بابل خطأ تصوره حول محدودية العالم، وأنَّ ما غزته جيوشه ليس إلا رقعة بسيطة، شرع في اتخاذ قراراتٍ تناسبُ شخصيتَه:

"الملاك: (إلى الملك) يسعدني أنْ أعرفَ الشحاذَ عاقي.

الملك: (مضطربًا عند رؤية ملاكٍ قد ارتدى ملابسَ الشحاذين) .. أنا لستُ عاقي الشحاذ .. إنني شحاذٌ آخر مِنْ مدينة نينوي. (وبقسوةٍ) أعتقد أني وعاقي آخر شحاذين في العالم كله.

---

* لعل رفض رئيس الوزراء والكاهن الأكبر لمزيدٍ من التوسع في الحرب تأسس على ما اصطلح على تسميته الآن بمفهوم الانتخاب الثقافي، الذي يمثل إشكالية جدلية تسقط الجماعة بين رغبتها في التوسع الاستعماري وما يترتب عليه من التوسع في النفقات العسكرية، مع ما يؤدي إليه من تهديداتٍ في ظل تعاظم الإنفاق العسكري على حساب غيره. راجع: الانتخاب الثقافي: أجنر فوج، ترجمة: شوقي جلال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، التعريف ص ٣٤٨. وتجدر الإشارة إلى التقارب بين هذا المفهوم وأثر العصبيات وفقًا لتنظير ابن خلدون المتقدم.

الملاك: (إلى كوروبي): إذن فالخريطة التي معي خاطئةٌ. فهناك شحاذٌ في نينوي. هناك إذن اثنان مِنْ الشحاذين في العالم والخريطة تقول واحدًا فقط.

الملك: (لنفسه) سأشنق وزير الداخلية. هناك اثنان مِنْ الشحاذين في امبراطوريتي. (إلى الملاك) من أين جئت.

الملاك: (مترددًا): من وراء لبنان.

الملك: إنَّ ملكَ بابل العظيم قد أعلنها بصراحة أنَّ العالم ينتهي بعد لبنان. وكل علماء الجغرافيا والفلك يؤمنون بهذا الرأي.

الملاك: (ينظر في خريطته): هناك قرى أخرى كثيرة انظر هناك أثينا .. وإسبرطة .. وقرطاجنة .. وموسكو .. وبكين (ويطلعه على الخريطة).

الملك: (يتحدث إلى نفسه): سأشنق عالم الجغرافيا الخاص .. (إلى الملاك) إنَّ ملك بابل العظيم سيغزو هذه القرى أيضًا .."[١٣]

نستطيع أن نستشف من هذا المقطع أمورًا عدة:

- **هذا الملك لا يتقبل مطلقًا أيَّ رأيٍ آخر؛ فإذا كان وجودُ الملاكِ في صورةِ متسولٍ آخر غير "عاقي" شحاذ "بابل" الأوحد، فإنَّ هذا يخالف ما في تقارير وزارة الداخلية، ويعني أنَّ قصوراً ما موجودٌ في عملِ الأجهزةِ الأمنيةِ، هذا القصورُ أو السهو لا يمكن تدارك في رأيِّ "الملكِ"، بل حله الوحيد هو شنق وزير الداخلية – مصدر هذه المعلومة – لأنَّه في رأيِّ "الملكِ" يُقَدِّمُ معلوماتٍ مغلوطةٌ، تدلُ على تواطئه، فهو إذن خائنٌ جزاؤه الإعدام، أو مقصرٌ مهملٌ فلا مجالَ لوجوده بجوار الملك الكامل، الذي لا يسمح لِمَنْ دون الكمال بمعاونته.**
- **يتأكدُ هذا مِنْ خلالِ رؤيتِه لعالمِ الجغرافيا الخاصِ بالملكِ؛ فإذا أخطأ في تقدير حدود العالَمَ لا يتقبل الملك منه ذلك، بل يقرر إزهاق روحه أيضًا، مما يبرز تصورا لحاكم للعلم فهو ليس** "ما يقبلُ التخطئة" **كما عند فيلسوف العلوم " كارل بوبر" بل العلم – عنده – كمالٌ لا يقبل أخذًا ولا ردًّا، وعدم وصول إدراك علم العالم لحدود العلم الذي يدرسه يوجب التخلص منه، لأنَّه**

(١٣) هبط الملاك فى بابل، السابق نفسه، ص ١٤١.

حال بهذا دون تحقيق حلم الملك في امتلاك العالم بأسره بالغزو المستمر، ولعل هذا يكشفُ عن رغبةِ هذا الملكِ في امتلاك الحقيقة المطلقة تعويضًا عن النقص المعربد في داخله، ولعل في ذلك ملمحًا لتشيئ الملك للأشخاص؛ فهو يتعامل مع وزير الداخلية وعالم الجغرافيا مِنْ منطلقِ قيمتهما النفعية، ومدى ما يقدمه كلاهما للملك من معلوماتٍ صادقةٍ مفيدةٍ، فإذا ثبت خطأ أو قصور في معرفتها انتفى بهذا جوهرُ وجودِ كلٍّ منهما، ووجب التخلص منه، هو إذن يجمع بين النظرة النفعية وتشيئ البشر.

اتخاذ الملك قراره بمواصلة غزو القرى الجديدة التي يسمع عنها لأولِ مرةٍ يَكشِفُ عن أنَّه "لم يكن يعاني أزمةً نفسيةً ما؛ بقدرِ ما كان صاحبَ فكرةٍ مجنونةٍ بزغت في عقلِه وآمن بها أشدَّ الإيمان، وعملِ على تحقيقها عن وعيٍ تامٍ، وبخطى حديديةٍ ثابتةٍ. ومَنْ كان على تلك الحالة لا يكون مأزومًا على المستوى النفسي؛ لأنَّ المأزومَ حائرٌ دومًا ومرتبكٌ أبدًا حتى يشفى من أزمته، ولم يكن .... حائرًا ولا مترددًا ولا مرتبكًا، وإنما كان مثالًا لفكرةِ الأنا المنقطعةِ لذاتِها والمحققةِ لجوهرِ وجودِها الأوحد والنافيةِ للآخر بدأبٍ وحَزْمٍ ومفاجأةٍ"[١٤] **وقد يظهر هذا النفيُّ للآخر تحقيقًا لجوهر الوجود الأوحد في رفضه لاعتلاء غيره أي عرشٍ، وفي سعيه لتقويضِ العروشِ الأخرى كلها، وإخضاع أصحابِها له، بحيث لا يكون في العالمِ إلا عرشٌ أوحد، عرشُه هو الذي لا يتسعُ العالمُ لغيرِه.**

ويدلُّ على تضخيم ذاته قولُه عن نفسه بعد أنْ تجردَ منها في صورةِ شحاذٍ: "ملك بابل العظيم**"، فهو لا يقبل إلا بأنْ يوصفَ بالعظمةِ مِنْ نفسه أو مِنْ سواه. وهو يعلن عن رغبته في مواصلة الغزو في هدوءٍ دون انفعالٍ، مِمَّا يكشفُ عن إيمانِه الشديدِ بفكرةِ السيطرةِ على العالم، وتنفيذه الواعي لها، وفق مخططٍ عسكري مُحْكَمٍ.**

- **وقد أبرز النصُ التباينَ بين فكرِ الملكِ المعوجِ وفكرِ الملاك؛ فبينما يرفض الملكُ التخطئةَ يقلبها الملاك بلا غضاضةٍ؛ فهو يَسِمُ خريطتَه بالخطأ بسهولةٍ ويسر، ودونما غضب أو تأزم، عندما يدل الواقع على وجودِ شحاذين**

(١٤) المخرج المسرحي والقراءة المتعددة للنص: أبو الحسن سلام، الإسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٣م، ص ١٢٦.

بعد أنْ أكدت الخريطةُ وجودَ شذاذٍ واحدٍ، ودون إدانةٍ لأحدٍ، ولا اتخاذ قرارٍ بشنقِ أحدٍ، وفي هذا إيحاءٌ بإيمانه بالشق التجريبي من العلم، وعدم تمسكه بنظريةٍ ينقضها الواقعُ.

- **حدود العالم التي يعرفها الملكُ يوسعها الملاكُ من جهاتٍ مختلفة: أثينا وإسبرطة في الشمالِ الغربيِّ بأوروبا، وقرطاجنة غربًا بأفريقيا، وموسكو في أقصى الشمالِ بينما بكين في أقصى الشرقِ، ليجاوزَ جزيرةَ العربِ – عالم ملك بابل – إلى أطراف العالم القديم، المتصل في كتلةٍ واحدةٍ وسط الكرةِ الأرضيةِ، دونما حاجةٍ لاجتياز محيطاتٍ واسعةٍ للوصولِ إلى العالمِ الجديدِ، بل يمكن ارتياد العالم القديم برًا من أدناه إلى أقصاه.**

وقريبٌ من الشاكلة المتقدمة ينحو "نمرود" هذا النحو، عند اعتلائه العرش، و كأنَّه نهجٌ ينتهجه كلَّ طاغيةٍ:

"نمرود : سأغزو العالم من جديد. سأشعل نيران الوطنية في بابل. وإذا كانت هناك قرى وراء حدود لبنان، فهناك قرى أخرى وراء البحر.

العامل الثاني: إنَّه مصاصٌ للدماءِ كالآخر.

العامل الأول : لا نريدُ غزواتٍ دولية.

الزوجة الأولى: لقد أكلوا أولادنا في الحروبِ.

الجميع : لا ملوكَ بعد اليوم .."[١٥]

إنَّ النمرود حينما يسعى لكسب تأييد الجماهير الثائرة على النظام الملكي داعيًا للتحول إلى الحكمِ الجمهوريِّ واختياره رئيسًا للجمهورية الأولى – يعرض على الجماهير برنامجًا أو جدول أعمالٍ يَعِدُّ بأنْ يُنَفِّذَه حينما يتولى الحكم، يتمثل في: التوسع في غزو العالمِ من جديدٍ، مستندًا إلى أنَّ هذا الغزو يزكي الشعورَ الوطنيَّ، ولا يكتفي بتجاوز لبنان – حدود العالم المعلوم لهم – إلى ورائه، بل يدلل على توسعه في الغزو بسعيه إلى عبور البحر إلى ما وراءه من بلادٍ.

إنَّ كلَّ مؤهلاتِ الحاكمِ التي اعتاد عليها هي الغزو والتدمير، وهناك تاميح إلى دأب بعض الأباطرة على تفريغِ أيِّ نظامٍ مِنْ محتواه وتطويعه لذات

(١٥) هبط الملاك في بابل، السابق نفسه، ص ١٦٨.

الامبراطور.. له هو.. بحيث يحقق من خلال الحكمِ رغباتِه، دون إدراكِ الفارقِ بين نظاميِّ الحكمِ الملكيِّ والجمهوريِّ مِنْ حيث الجوهر الذي يتأسس عليه كلٌّ منهما؛ فهو يريد إدارةَ جمهوريةٍ بما ألفه من منطق الحكم الملكي، دون وعيٍ بأنَّ تَغَيُّرَ الأساسِ يوجبُ تغيير الفروعِ والأفكارِ كافةً.

وإذا كان الشعبُ يرفضُ الملكيةَ؛ فهل يقبلُ تزييفَ وعيه بجمهوريةٍ جوفاءٍ؟

إنَّ الشعبَ يحكمُ عليه بلسانِ أحدِ أفراده بأنَّه مصاصُ دماءٍ، يهدفُ إلى إسالةِ دماءِ أفرادِ الشعبِ في هذه الحروبِ التي تحققُ أطماعَ الحاكمِ وحده، وتزيد إحدى الزوجاتِ الأمرَ بشاعةً حين تصور الحربَ الطاحنةَ فكًّا هائلًا يلتهمُ الشبابَ، ومتخذ قرار الحرب هو الحاكم، ممَّا يقربه من آكلي لحومِ البشرِ. أما العامل الثاني فينطقُ - بلغةٍ تقريريةٍ مباشرةٍ - معبرًا عن رفض الشعبِ لحروبٍ دوليةٍ خارجيةٍ ... إنَّه ينشدُ الأمنَ والأمانَ اللذين يحققهما السلامُ المفتقدُ، لينتهي الناسُ جميعًا إلى رفض الملكيةِ شكلًا بالمناداة بالجمهورية، ومضمونًا برفض حشو الشكلِ الديمقراطيِّ الجمهوريِّ بمضمونٍ ملكيٍ يُعَبِّرُ عن مصالح الفرد الأوحد؛ مما يكشف عن وعي الشعبِ بمطلبه، وهو حتمية الإصلاح من خلال التغيير، لأنَّ "الإصلاح والتغيير لا يستهدفان الأنظمة وحدها ولكنهما يتجهان إلى الشعوب والمجتمعات لرفع ركامٍ ضخمٍ من الأفكار البالية والرؤى الأحادية التي تدركُ معنى التطور ولا تتجاوب مع طبيعة العصر، فالأصل في الحياة هو التجديد المستمر، ... وإذا كان التغيير يتصل بالمؤسسات والسياسات فإنَّه لا بدَّ وأنْ يطاولَ القياداتِ أيضًا، كما نرى في الوقت ذاته أنَّ تغيير الأفرادِ لا يكفي وحده للولوج إلى عملية الإصلاح بل لا بدَّ من مضمونٍ تستند إليه، وفكرٍ تنطلق منه، ورؤية ترسم الطريق"(١٦).

وهذا ما انتهى إليه الشعب: تغييرٌ شاملٌ يحقق السلام الذي مزقته الحروب والغزوات.

وعلى هذه الشاكلة من السعي للحرب والغزو تمضي الأنظمة السياسية، وفي مسرحية "في قطرة ماء" هناك ما يعصف بالسلام:

---

(١٦) الدولة المصرية والرؤية العصرية– من فقه المراجعة إلى فكر المستقبل: مصطفى الفقي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ٣٠، ٥٥.

"الساحرة الأولى: ما أتعسهم وما أشقاهم هؤلاء البشر. إنَّهم يتعذبون.
الساحرة الثانية: أليس هذا العذاب مِنْ صنع أيديهم (تسمع أصوات انفجار القنابل).
الساحرة الأولى : إنَّ أفرادًا منهم صنعوا أدوات الدمار، وفيهم مَنْ تجبَّر في الأرض، وفيهم مَنْ تحجر قلبُه، يريد إشعال نار الحرب فيهلك البشر الذين لا حول لهم ولا قوة ولكن ما ذنب الملايين الذين لم يرتكبوا إثمًا؟ إنَّهم يعيشون في رعبٍ مستديمٍ. ...
... (بحزن) رحمة الله على البشر أجمعين.
الساحرة الثانية: لماذا تطلبين الرحمةَ لجميع البشر؟
الساحرة الأولى : لأنَّهم في محنةٍ. إنَّهم في حاجةٍ إلى الرحمة في هذه الأيام.
الساحرة الثانية: ولماذا؟
(تُسْمَعُ أصوات انفجارِ قنابل من بعيد)
الساحرة الأولى : ألا تسمعين أصوات القنابل الجهنمية التي يفجرونها مِنْ آنٍ لآخر. التجارب الذرية التي تزلزل الأرض. إنَّها نذيرٌ بِشَرٍ عظيمٍ. هل تذكرين ما حدث لأهل هيروشيما؟
الساحرة الثانية: (بحزنٍ) هيروشيما؟ نعم. وهل مِنْ الممكن أنْ أنسى هذا؟
الساحرة الأولى : لقد ألقى عليهم أحدُ مجانين البشر إحدى هذه القنابل الجهنمية فقتلَ الأطفالَ والنساءَ والعجزةَ والمرضى. ماتوا جميعًا بدون ذنبٍ جنَوْه. لقد ظللت أبكي من أجلهم سبعة أيامٍ ومازال صراخ أطفالهم يرن في أذني.
(يُسْمَعُ صراخ أطفالٍ وكأنه صدى قادمٌ من بعيدٍ)
هيه. إنَّ أبشعَ شيءٍ في الوجودِ هو أنْ تُسلبَ الحياة من طفلٍ صغيرٍ وهو يستقبل الحياة.
الساحرة الثانية: إنَّها الحربُ، آفة البشر.

الساحرة الأولى : يشعلها المجانين ويصطلي بنارها المساكين"[١٧].

هناك نقطةُ خلافٍ بين الساحرتين حول البشر، إذ ترثي أولاهما للبشر، وترق لهم مشفقةً عليهم، مِمَّا تموج به الأرض من حروبٍ يصطلي بنارها البسطاءُ، فهي ساحرةٌ عاطفيةٌ تحركها المشاعر والأحاسيس.

أما الثانيةُ فلا تحركها المشاعر قيد أنملة، إنَّها كتلةٌ مِنْ عقلٍ أصمٍ بلا أدنى عاطفةٍ؛ لذا تقول في هدوءٍ؛ بل برودٍ عن البشر: إنَّهم لا يستحقون هذه الشفقة، وتعلل لرأيها فهي إذن منهجيةُ التفكيرِ، تسير على هديٍ من السببية المنطقية، تأكيداً للطبع المميز لشخصيتها وهو العقلانية، وتبرر ما انتهت إليه بأنَّ ما يعانيه البشر مِنْ عذابِ الحربِ إنما هو مِنْ صنع أيديهم؛ فإنْ أرادوا الشفاء من الداء فعليهم الأخذ بالدواء، بمنع أسباب الدمار والحرب. ولعل هذا من أصداء ثقافة المؤلف الدينية، على هديٍ من قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [سورة النساء، من الآية (٧٩)]، **فالإنسانُ – في رأيها – مَنْ يُفْسِد ويَقْتُل، ولربما كانت مع مَنْ ذهبوا إلى أنَّ الإنسان جُبِلَ على الشر؛ فـ**

"لقد تعددت آراء المشترعين وأصحاب الآراء في القوانين بين طائفةٍ ترى أنَّ الإنسانَ مطبوعٌ على الشر وأنَّ حالةَ الحربِ هي الحالةُ الطبيعية بين الناس حتى تتقرر بينهم حالةٌ غيرها من أحوال المصالحةِ والتراضي على المسالمة والأمانة، وطائفةٍ ترى أنَّ الإنسان– بطبعِه– مخلوقٌ وديعٌ يدفعه الخوف والحاجة إلى المشاكسة فيتعدي على كُرهٍ ويصدّ العدوانَ على كُرهٍ وتجري عادته على وفاق ما تمليه عليه معيشةُ الأمنِ والرخاءِ أو معيشة القلق والاضطراب"[١٨].

وإذا كانت الساحرةُ الثانيةُ العقلانيةُ أدنى إلى رأيِّ الطائفةِ الأولى مِنْ أنَّ الإنسانَ مصدرُ الشرِّ، فإنَّ الساحرة الأولى بقدر ما تشترك مع الطائفة الثانية في أنَّ الإنسانَ أميلُ إلى الوداعةِ، فإنَّها أدقُّ مِنْ صاحبتها في عدمِ اللجوءِ للتعميمِ، بل تقسم البشرَ إلى طائفتين كلتيهما: فئةٌ قليلةٌ جُبلت على الشر، وفئةٌ كثيرةٌ

(١٧) في قطرة ماء: يوسف عز الدين عيسى، ضمن مجموعة: نريد الحياة ومسرحيات أخرى، القاهرة، دار المعارف، د/ ت، ص ص ٣-٦.

(١٨) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص١٧١، ١٧٢.

(سوادٌ أعظم) تعيش في معاناةٍ صنعها مشعلوا الحروب، ممَّن فقدوا مقوماتِ الإنسانيةِ، ولهم قلوبٌ رانَ عليها كسبهم، فصارت صماءَ متحجرةً لا تحس، ونفوسهم متجبرة لا ترق لقد انحدروا عن رتبة الإنسانية إلى ما دونها، مصداقًا لقوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف، الآية (١٧٩)]، **لقد انتقلوا نفسيًّا عن الطور الإنسانيِّ إلى ما هو أدنى من الطور الحيوانيِّ، ولهذا يسعون إلى إهلاك الجنسِ الذي فقدوا الانتماء إليه، فيوقدون نيران الحرب التي- بتعبير الساحرة: "**يشعلها المجانين ويصطلي بنارها المساكين**"، وهذا الخللُ في نفوسِ هذه الفئةِ القليلةِ هو منبعُ معاناةِ البشريةِ،** "ولَكَم عانت الإنسانية وتعاني من قادةٍ، عزَّ عليهم هذا الاتزانُ، وشقَّ عليهم ذلك التعادلُ، وخانتهم أنفسهم، فانقلبوا طغاةً جامحين، وجبابرةً متمردين، زلزلوا السلام، وأرهبوا الدنيا وأساءوا إلى أممهم، وإلى العالم معهم، كما أساءوا إلى تاريخهم هم أنفسهم، فضيعوا الملايين من الناس، ثم آبوا في أصيل حياتهم يحاسبون أنفسهم فكان أيسرُ ما خلَّفوا من أثرٍ مدنيٍّ اجتماعيٍّ، أخلد من أعظم ما نالوا مِنْ نصرٍ وأحرزوا مِنْ غلب مدمرٍ حاطمٍ"[19] **ولو تنبهوا إلى أنَّ الحروبَ غيرُ مُخَلِّدَةٍ لهم- كما ظنوا- ما حاربوا؛ ولذا تترحم الساحرة الأولى على البشر أجمعين، مبررةً ذلك الفعل منها، بأنَّهم لم يتعلموا مِنْ تجربةِ الحربِ العالميةِ الثانيةِ، التي هلك فيها ملايينُ البشرِ بأنْ يتضامنوا جميعًا مِنْ أجلِ حفظِ السلامِ العالميِّ، بل تعلموا مِنْ الحربِ التكالبَ على امتلاكِ السلاحِ النوويِّ وممارسة تجاربه؛ لِمَا كانَ له مِنْ أثرٍ في سرعةِ إنهاءِ الحربِ، وتدميرِ المارد اليابانيِّ الصامدِ المهاجمِ بلا هوادة، وهذا السعيُّ للانضمامِ للنادي النوويِّ ظاهره فيه الرحمة، وباطنه مِنْ قِبَلِه العذابِ، ظاهره توازن القوى بين العصبيات العالمية الكبرى، بحيث لا يقدم طرفٌ على مهاجمة غيره، ممَّا يحفظ السلامَ العالميَّ ويُرْسِي دعائمَه، وباطنه شرٌّ عظيمٌ، ورغبةٌ في الفتكِ والعدوانِ وتهديدات مستمرة قد تصير حقيقةً، إذا ما صادفت رعونةً مِنْ أحدِ أولئك القادة في لحظةِ اختلالِ توازنٍ، أو سوءِ تقديرٍ أو حتى رغبة مفعمة في إثباتِ**

(١٩) من هدي القرآن: أمين الخولي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص ١٢٩.

الذات، بغضِّ النظر عن نتائج الدمار الهائلة التي لا تفرق بين محاربٍ ومدنيٍّ، رجل وامرأة، طفل ومسن. فكلهم سواء أمام تلك القنابل المدمرة.

وتأتي إدانةُ الساحرة الأولى لإهلاكِ الأطفالِ والنساءِ والعجزةِ والمرضى ممَّنْ هم أبعدُ ما يكونون منْ ساحة الوغى؛ فهم مسالمون أبرياء – متسقةً مع آداب الجهاد الإسلامية – مما يعكس الثقافة الدينية للمؤلف – فها هو الصحابي الجليل أبو بكر الصديق حين بعث أسامة بن زيد لقتال الروم؛ يقول: "يا أيها الناس، قفوا أوصِكُم بعشرٍ فاحفظوها عني: لا تخُونُوا ولا تُغَلوا، ولا تَغْدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأةً، ولا تعقِروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً إلا لمأكلةٍ، وسوف تمرون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفُسهُم في الصوامع فدَعُوهُم وما فرَّغوا أنفسَهُم له، وسوف تُقدمون على قومٍ يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوانُ الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليه ...."(٢٠)

إنَّ الخليفةَ الأولَ يضعُ قيودًا شديدةً محكمةً تضمن الأمن للإنسان والحيوان والنبات، إنَّها دعوةٌ حقوقيةٌ مبكرةٌ لا تبيح القتل إلا لمَنْ يشهر السلاح في ساحة القتال(٢١).

وتُعَبِّرُ الساحرةُ الأولى عن حسِّها المرهف بأنْ بكت سبعة أيامٍ على ضحايا هيروشيما، على الرغم منْ أنَّهم ليسوا منْ ذويها، ولا يفوت التنبيه لما لرقم سبعة منْ دلالةٍ مفتوحةٍ لانهائيةٍ في بعض التأويلات الدينية، بل ما زال صراخُ أطفالهم يترددُ في أذنيها، إذْ لا تنسى تلك الصيحات المؤلمة لطفلٍ تستقبله الحياةُ بإزهاقِ روحِه لا بالترحابِ ... إنَّ أولئك الطغاةَ لم تجد الإنسانيةُ إلى نفوسهم سبيلًا.

أما رفيقتها فتقرر بكلِّ هدوءٍ وتماسكٍ أعصابٍ "إنَّها الحرب آفة البشر"، وإذا كانوا يُنَحُّون عقولَهم، فأنَّى لهم بمرشدٍ يجنبهم هذا الخطب؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة يونس، من الآية (٤٣)]،

(٢٠) تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، د/ ت، ج٣، ص ٢٢٧ (أحداث سنة ١١هـ).

(٢١) راجع حول أدب الجهاد: القيم الخلقية في الخطابة العربية: د/ سعيد حسين منصور، بيروت، منشورات جامعة بني غازي، وأدب الخلفاء الراشدين: جابر قميحة، القاهرة، دار الكتاب المصري، د/ ت، ص ٤١٤ وما بعدها.

معبرةً عن عقلانيتها الشديدةِ التي لا تسمحُ للعاطفةِ بأنْ تخرجَها عن جادةِ الصوابِ، ولعلها بهذا تُعَبِّرُ عن رفضِها للسلوكياتِ المتناقضةِ التي تسببُ الويلاتِ البشرية لمخالفتها منطق العقلِ السديدِ.

ولعل يوسف عز الدين عيسى كان وقتها أميل إلى التشاؤم، بصددِ قدرةِ الإنسانِ على إرساءِ السلامِ، فكل ما على الأرضِ مِنْ بشرٍ أو مدرٍ يموجُ بالحروبِ والصراعاتِ، حتى أدنى شيءٍ ... قطرة الماء ... أصل الحياة ... بدا خلِها صِدَامٌ حَادٌّ

كما يتصور المؤلف يقول:

"الراوي: لقد صغر حجم هذا الرجل حتى بلغَ حجمَ ميكروب صغيرٍ، وأدخلته الساحرة قطرة الماء وفي هذه اللحظة التي دخل فيها قطرة الماء وجدها بالنسبةِ لحجمِه الجديدِ عالمًا كبيرًا يموج بالمخلوقاتِ الغريبةِ في مثلِ حجمِه الجديدِ ... وفي هذه اللحظةِ مرَّ عليه مخلوقان مِنْ مخلوقاتِ عالمِه الجديدِ هذا وقفًا يتأمَّلانه ويتحدثان.

الأول: .... (ثم مخاطبًا الرجل) مَنْ أنتَ؟

الرجل: أنا، لستُ أدري. لا أذكر لي اسمًا ... لا أذكر أنني رأيتُ مكانًا غير هذا المكان.

إنني لا أذكرُ شيئًا من الماضي. أشعرُ كأنني ولدتُ في هذه اللحظة.

الثاني: ألم تجد وقتًا تولد فيه غير هذا الوقت؟ ألا تدري أننا نعيش في حالةِ حربٍ؟

الرجل: تعيشون في حالةِ حربٍ؟ يخيل إليَّ أنني أكاد أتذكر حالةً كهذه مرَّتْ عليَّ في الماضي البعيد، ولكنني لا أتبينُ الماضي جيدًا. ولماذا حالة الحرب هذه؟

الثاني: ألا تدري؟ التيفودُ يدعي أنَّه أرقى المخلوقات. فقامت الحرب بينه وبين الدفتريا.

الرجل: التيفود والدفتريا؟ يخيل إليَّ أنني سمعتُ هذه الأسماءَ مِنْ قبل. أليست هذه ميكروبات؟"(٢٢)

يبدو أحد مخلوقاتِ عالم قطرة الماء وهو يتحسر لسوءِ توقيتِ مولد هذا المخلوق الوافد (الإنسان)، في غمارِ حربٍ طاحنةٍ، تنذرُ بالفناءِ، مِمَّا يجعل حدثَ

(٢٢) في قطرة ماء، السابق نفسه، ص ص ١٣ . ١٥.

الولادةِ مُلبداً بغيومِ وجودِ ما يُهَدِّدُ حياةَ المولودِ، حتى إنَّ بعضَ الكائناتِ تمتنع عن الإنجاب والتكاثر لاجتماعِ أخطارٍ مُحْدِقَةٍ، في عقمٍ اختياريٍّ إلى أنْ يسودَ السلامُ. ولعل حدثَ الولادةِ هذا إشارةٌ إلى أنَّ الحربَ لن تفني النوعَ البشريَّ، ففي الولاداتِ المتواليةِ مقاومةٌ للفناءِ، وتعبيرٌ عن رفضِ الحربِ؛ لابُدَّ مِنْ أنْ يسعى الأبوان إلى إرساءِ السلامِ حفظًا للمولد.

أما سببُ الحربِ بين المخلوقاتِ في هذا العالمِ الضئيلِ فإدعاءُ جنسٍ من الميكروبات- هو التيفود- تميزه عن سائر الكائناتِ، ممَّا يُثِيْرُ حفيظةَ جنسٍ آخر، فيسعى لإثباتِ زيفِ إدعاءِ التيفود بشكلٍ عمليٍّ من خلال حربٍ طاحنة. ولعل هذا إسقاطًا على الحربِ العالميةِ الثانية- وما هي وقتئذٍ ببعيدٍ، إذ كُتِبَت هذه المسرحية عام ١٩٤٧م- وأسبابِها من إدعاءِ تفوقٍ للجنس الآري على مَنْ عداه، والدعاوى المُغرضة، مِنْ تَمَيُّزِ لونٍ على آخر، وما أشبه، فيما عرف حديثًا بالتفرقةِ العنصريةِ، وقديمًا بالشعوبيةِ، ممَّا يتنافى مع سماحةِ الخالقِ الذي اقتضت حكمَتُه تعدد ألوانِ البشرِ، قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر، الآيتان (٢٧، ٢٨)]. **كذلك لم يجعل سبحانه لونَ البشرةِ معياراً للتفاضل بين البشر، بل التقوى:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [سورة الحجرات، من الآية (١٣)]، **وأوضح النبي ﷺ ذلك بقوله:** «أيها النَّاس، إنَّ ربكم واحد، وإنَّ آباكم واحد، كُلكم لآدم وآدم من ترابٍ أكرمكم عند الله أتقاكم، إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ. وليس لعربيٍّ على أعجميٍّ فضلٌ إلا بالتقوى»[٢٣] **فقيمة المرء ما يحسن، وهي تنبعُ مِنْ داخله لا مِنْ شيءٍ طارئٍ عارضٍ لا دخلَ له فيه، مِنْ لونٍ أو عرقٍ أو جنسٍ، وأبسط مبادئ حقوق الإنسان: منع التمييز بكلِّ صوره. وما أصداء الشعوبية البغيضة التي حاربها الجاحظ وغيره مِنْ المخلصين ببعيدةٍ، ويحسبُ لأديبِ العربيةِ سَبْقَه إلى التنبيه لدور التعصب في**

(٢٣) من نص خطبة الوداع، البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق/ عبدالسلام هارون، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ج٢، ص٣٣.

الفسادِ والإفسادِ، بحسِّه الريادي في مجالِ علمِ الاجتماعِ، يقول: ".... ثم قرنوا بذلك العصبية التي هَلَكَ بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقي دينًا إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالى من الفخر على العجم والعرب"(٢٤).

إنَّه يُوسع دائرةَ خطرِ هذه العصبيةِ البغيضةِ، ويراها جديرةً بإفناءِ العالم ... بل عوالم عدة لا عالمًا واحدًا، عَبْر حروبٍ ضَرُوسٍ، ولعله يستلهم هنا قول الله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران، الآية (١٠٣)] **في معرض امتنان الخالق على المؤمنين بوحدة الصف، بعد أنْ كادت العصبيةُ الجاهليةُ والحميةُ تمزقان الحياةَ وتهلكان الحرثَ والنسلَ، ويحذرهم سبحانه منْ العودة للتفرقِ والتشرذمِ:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الأنفال، الآية (٤٦)]، **لقد أبدلهم بعصبيةِ الدماءِ القبليةِ الأخوةِ الإيمانيةِ، التي لا مجال لخرقها حال التمسك بعُرَى الدينِ، إلا إنَّ الأحقادَ أثارَت العصبيةَ؛ يقول الجاحظ:** "فتفهم عني – فهمك الله – ما أنا قائل في هذا، ثم اعلم أنَّك لم ترَ قومًا قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشدَّ استهلاكًا لعرضه، ولا أطولَ نصبًا، ولا أقل غنمًا مِنْ أهلِ هذه النِّحلة. وقد شفى الصدورَ منهم طولُ جثومِ الحسدِ على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاقَ كلِّ ملةٍ، وزيِّ أهلِ كلِّ لغةٍ وعللهم، على اختلاف شاراتِهم وآلاتِهم، وشمائلِهم وهيئاتِهم، وما علة كلِّ شيءٍ مِنْ ذلك، ولِمَ اجتلبوه ولِمَ تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، ولخفَّت مؤونتهم على مَنْ خالطهم"(٢٥).

ولأستاذنا الدكتور سعيد منصور درسٌ مستفيضٌ لهذه الظاهرةِ، نستضئ بقبسٍ منه، يقول: "إنَّ الجاحظَ أراد بكتابِه "البيان والتبين" أنْ يردَّ على الشعوبيةِ ردًّا مفحمًا ببيان ما تحمل الثقافة العربية في الخطابة والشعر والأمثال مِنْ قيمٍ بلاغيةٍ رائعةٍ، .... وإذا كان بين

(٢٤) رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء الثاني، تحقيق/ عبد السلام هارون القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٣٠.

(٢٥) البيان والتبيين، السابق نفسه، ج٣، ص ٢٩، ٣٠.

حركة الزندقة وحركة الشعوبية صلةُ رحمٍ وقرابةٍ ترجع إلى أصولٍ فارسيةٍ، فإنَّ هذا التحالف الذي قام بينهما قد أدى إلى تلاحم المعارك التى نشبت بينهما وبين أدب الجاحظ كما عرفنا . ...

...كانت الشعوبيةُ إذن قضيةً مِنْ قضايا المجتمع أو مشكلةٍ مِنْ المشكلاتِ التي كانت تواجه الأمة في عصرِ "الجاحظ" وامتدت آثارها أيضًا عند غيره مِنْ كُتَّاب القرنِ الثالثِ وما بعده – كما سنرى – مُتْخذين نفس الموقف وإنْ اختلفت السبل وتعددت . ...

قضية الشعوبية إذن ليست قضية حقدٍ يغلي، وحسدٍ يغور في الصدورِ، وشنآن يتوقد أو يتسعَّر في القلوبِ، ولكنَّها مع هذا كلّه قضيةُ الجهلِ ... جهلٌ بعلمِ الاجتماعِ – الذي يضع الجاحظ يده عليه – وما يقتضيه مِنْ معرفة طباع الشعوب، واختلاف البيئات، وتأثيرها بما تفرضه من قوانين .... فلم يَخْلِقْ اللهُ النَّاسَ ليحشرهم في مكانٍ واحدٍ، ويطبعهم بطبيعةٍ واحدةٍ .. وإنما تفرقت بهم السبل على وجه الأرض ... ووزعتهم الأرض على دهور الزمن ... وكل شيءٍ عند الناس مرده إلى ذلك .. ومَنْ عَرِفَ ذلك نجا مِنْ هَلَاكِ الجهلِ ودمارِ الحقدِ والحسدِ"[٢٦]. **أما مَنْ لا يُدرك هذه الفروقَ الطبيعيةَ فيتورط، أو يورط غيره في حروبٍ دامية، فليس مِنْ الغلوِ إذن أنْ يذهبَ أحدُ الباحثين إلى أنَّ جهودَ الجاحظ في مقاومة الشعوبية التي نجح بها في إخراسها، كانت عن وعيٍ منه لدور المثقف في علاجِ أدواء أمته، عَبْرَ نشرِ السلامِ الاجتماعيِّ[٢٧]، ولا أدلَّ على ذلك مِنْ أنَّ ثورةَ الزنجِ[٢٨] – زنج الخبيث– هاجت بعد وفاته في العامِ نفسه ٢٥٥هـ، وكأنَّهم لم يكونوا يقدرون على ذلك في حياته.**

هذه هي العصبية المقيتة التي تُشْعِل الحروب، والغزو الذي يسعى إليه البشر، فإذا عجز عن مواصلته على الأرض سعى إلى الاسترسال فيه خارجها:

---

(٢٦) دراسات في النثر العباسي في القرن الثالث الهجري: الأستاذ الدكتورسعيد حسين منصور، دون بيانات، ص٥٨، ٦٣، ٩٨، ١١٤. وراجع: مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: محمد نبيه حجاب، القاهرة، الطبعة الأولى، نهضة مصر، ١٩٦١م، ص٥، ص ٤٢٢ وما بعدها خاصة.

(٢٧) راجع: دور الجاحظ في نشر السلام الاجتماعي في المجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري: أحمد أحمد فشل، بحث مقدم في ندوة عاطف غيث العلمية الثانية ١٩٩١م، ونشر ضمن أعمالها.

(٢٨) راجع: تاريخ الرسل والملوك، السابق نفسه، ج٩ ص ص ٣٨٢ – ٦٥٢ أحداث ٢٥٥ – ٢٦٩هـ.

" (... مكتب مدير عمليات غزو الفضاء .. الحجرة مزدحمة بأجهزة تليفزيوناتٍ وتليفوناتٍ وآلاتٍ وملفاتٍ، ونحو ذلك ... المدير منهمكٌ في العملِ ... تارة يراقب شاشة تليفزيون ... وتارة يرفع سماعة التليفون ... ثم يضعها قبل أنْ يتكلم، ويتناول أحد الملفات ويقلِّب فيه بسرعةٍ .. تدخل عليه السكرتيرة.)"[٢٩]

إنَّ مصطلحَ "مدير عمليات غزو الفضاء" يبدو مستفزًا لما تحمله كلمةُ "غزوٍ" مِنْ معانٍ سلبيةٍ، تتضمنُ عجرفةَ الغازيِّ وتدميره لمكانِ غزوه، مُفسدًا، مُغيِّرًا الطبيعة، مستغلًا لمواردها بل مستنزفًا لها فيما يخدم صالحه، بغضِّ النظرِ عمَّا فيه الصالح للمكانِ وأهله.

و كل ما يتضمنه المكتبُ مِنْ أجهزةٍ وآلاتٍ تواصلٍ وملفاتٍ تحتوي على معلوماتٍ يوحي بالأهميةِ البالغةِ لهذا العمل، و كأنَّ الغزوَ سمةٌ آدميةٌ، فها هم أبناء آدم إنْ أو صدَت أبوابُ الغزو الأرضي في وجوههم بحثوا عن مكانٍ آخر لغزوه، ولو خارج الكوكب- على الرغمِ مِمَّا في ذلك مِنْ صورةٍ سلبيةٍ منفردةٍ للغازي، الذي لا يشعرُ بالقوةِ إلا إنْ بطش بغيرِه ونَكَّلَ به، في عودةٍ إلى مفهومٍ جاهليٍّ أبدله النبيُّ ﷺ بآخر في حديثه: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٣٠] **ليست القوةُ بالمفهوم الجديد قوةَ البدنِ الأقربِ للبهيميةِ، بل القوة المعنوية .. قوة الإرادةِ وكظمِ الغيظِ، والتغلبِ على هوى النفسِ.**

ولعل هذا ما جعل الشاعرَ الراغبَ في الانضمامِ لرحلةٍ فضائيةٍ إلى القمر يَصِم غزوَ الفضاءِ بأنَّه كان عملًا جنونيًا؛ يقول:

"الشاعر: قيل لي إنَّ طلبي مرفوضٌ .. أريدُ أنْ أعرفَ ما هي الأسباب..؟

المدير: ليس لنا أنْ نبديَ أسبابًا لرفض مثل هذا الطلب الجنوني ...

الشاعر: في عصرِنا الحاضر ليس مِنْ حَقِّ أحدٍ أنْ يصفَ عملًا بالجنونِ! ...

---

(٢٩) شاعر على القمر: توفيق الحكيم، ملحقة بمجلس العدل، القاهرة، مكتبة مصر، دون تاريخ، ص ٨٦.

(٣٠) حديث صحيح، أخرجه الأئمة أحمد والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة، صحيح الجامع الصغير: الألباني، السابق نفسه، حديث رقم ٥٣٧٥، ج٢، ص٩٤٨.

إنَّ فكرةَ غزوِ الفضاءِ ذاتها كانت فكرةً جنونيةً...!

المدير: نعم .. ولكنها قامت على أسس علمية ... أما أنْ نرسلَ شاعرًا إلى الفضاء فهذا تخريفٌ .. لأنَّ الشعرَ نفسه تخريفٌ ... على أيِّ نظريةٍ يقوم؟ وفي أيِّ معملٍ تُجْرَى تجاربه؟ .. وإلى أين يؤدي..؟!"(٣١)

إنَّ ذهاب الشاعر لمقابلة "مدير عمليات غزو الفضاء" الوجه الثاني للغرابة بعد الوجه الأول، وهو طلبُه الارتحال عبر الفضاء إلى القمر، ويرى المدير – الذي يهتمُ بالنتائج العلمية، ويبحث عن وسائل تحقيق الأهداف العلمية المرجوة – أنَّه لا مجالَ للفنِ ولا للأدبِ في هذه الرحلاتِ الاستكشافية. ومِنْ هنا: يحكم على الشعر والشعراء بالجنون، تأسيسًا على عقلانيته التي لا تقبل إلا ما نهض على نهجٍ علمي، من الأسبابِ والنتائجِ والنظرياتِ العلميةِ والتجاربِ المعمليةِ، ولذا يرفضُ ذهابَ الشاعرِ في تلك الرحلةِ بينما الشاعر. وأحسبُ الحكيمَ يتقنعُ خلفَه. ليس إنسانًا هائمًا مُحَلِّقًا في عالم الخيال، بل هو رجلٌ يتحاورُ مع المدير حوارًا منطقيًا، يشي بقدرته على الموازنةِ بين القلبِ والعقلِ، تلك الإشكالية الجدلية التي شكَّل الصراعُ بينهما محورًا لبعضِ أعمالِ "الحكيمِ" السابقةِ على هذا العملِ الإبداعيِّ، مِنْ هذا المنطلقِ إذن حَكَمَ "مديرُ غزوِ الفضاءِ" على رغبةِ الشاعرِ بالجنونِ، وقابل الشاعرُ طرحَه هذا بطرحٍ عكسي تاريخي، هو أنْ هذه الفكرةَ عندما ظهرت في بعضِ الأعمالِ الأدبية، مِمَّا يندرجُ تحت أدبِ الخيالِ العلميَّ. مثل: "مِنْ الأرضِ إلى القمرِ" لجول فيرن – وُسِمَت بالجنونِ؛ لخروجِها على نسقِ الإلفِ البشريِّ؛ فكُلُّ فكرةٍ فيها جِدَّةٌ يُظَنُّ بصاحبها الجنون أولًا، تأسيسًا على الرؤية الهيجلية، مِنْ أنَّ التناقضَ جنونٌ.

وعندما يدرك الشاعرُ منطقَ العلمِ التجريبيِّ – عند المدير – لا ينفعل ثائرًا منخرطًا في جدلٍ عقيمٍ – على الرغم مِنْ عدمِ مناسبةِ المقياسِ للمقيسِ ... التجاربِ المعملية للشعرِ، فلا يناقشه في منطقِ تفكيرِه المعوجِ، لكنه يتجاوز هذا العَرَضَ إلى الجوهرِ، متمسكًا بلُبِّ القضيةِ؛ يقول:

"الشاعر: لا أحبُّ أنْ أُضَيِّعَ وقتَك في الكلامِ عن الشعرِ .. إنَّه بهذا المقياسِ لا فائدةَ له ..

(٣١) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ٨٩

المدير: إذن مِنْ حقي أنْ أرفضَ طلبَك ..
الشاعر: ومِنْ حقي أنْ أُصِرَ على السفرِ إلى القمر ...."[٣٢]

إنَّه يتمسكُ بالموضوعِ الأصلي، وهو السفرُ إلى القمرِ.

ويُلاحظ أنَّ هناك تلاقيًا بين الحكيمِ ويوسف عز الدين عيسى في شخصيتي الساحرتين عند الآخير، والشاعر والمدير عند الحكيم، إذ تتلاقى الساحرةُ الأولى مع الشاعرِ في الميلِ إلى العاطفيةِ، مع عدمِ إغفالِ المنطقِ والعقلِ، والساحرةُ الثانيةُ مع المديرِ في العقلانيةِ المُطلقةِ التي لا تعرفُ بصيصًا من نورِ القلبِ.

هذا القلبَ المرهفَ عند الشاعرِ، هو ما يجعله يشفقُ على الإنسانيةِ من آثارِ اكتشافِ مواردَ جديدةٍ خارج كوكب الأرض:

"الرائد الثاني: إنَّ هذا القمرَ هو مخزنُ كنوزٍ لا حصرَ لها .... يجبُ أنْ نكتمَ الأمرَ إذن.. وأنْ يبقى الأمرُ سرًا ... لأنَّ الأمرَ لو شاعَ لتكالبَتْ الدولُ الأخرى على هذه الكنوزِ ...

الرائد الأول: بالطبع .. يجب أنْ نكتمَ ذلك ..

.....

الشاعر: إنَّكم تعودون بكارثةٍ ... إنَّها الوقودُ لنارٍ جديدةٍ ... تريدون أنْ يحدثَ هنا ماحدثَ في الهندِ ... يومَ ذهبَ إليها الباحثون عن التوابلِ ... فإذا هم يستعمرونها استعمارًا ... وكما حدثَ في أمريكا يوم جاءها الباحثون عن الذهبِ فأبادوا أهلها إبادةً.."[٣٣]

إنَّ هذا النصَّ يكشفُ عن الرؤيةِ الاستعماريةِ لروادِ الفضاءِ؛ فهم يُقَيِّمُون المكانَ بناءً على ما يشتمل عليه من موارد طبيعيةٍ، وثرواتٍ قابلةٍ للاستنزافِ والامتصاصِ، بشكلٍ أقربُ إلى مصاصي الدماءِ الذين يمتصُ أحدهم دماءَ فريسته، فإذا عَجَزَت عن تزويدِه بمزيدٍ من الدماءِ التفتَ عنها باحثًا عن غيرِها. والعصبيةُ مسيطرةٌ عليهم، فهم يتواصون بكتمانِ الأمرِ، حتى يستأثروا به وحدهم، دون أنْ يصارعهم غيرهم عليه؛ حتى لا يقلَّ نصيبُ الفردِ مِنْ الثروةِ، وهذا الصراع باعثه

(٣٢) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ٩٠.

(٣٣) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ١١٢، ١١٣، ١١٥.

حرمان مَنْ يملك لمَنْ لا يملك مع "أنَّ الموادَ الأوليةَ التي هي مَحَلُّ النزاعِ بين الأممِ غزيرةٌ في الأرض تكفي جميعَ سكانِها وتزيدُ عن حاجتِهم، فلا موجبَ لاختصاصِ بعضِ الأممِ بها وحبسِها عن سائرِها. وقد تفاوضت الأممُ ذوات المستعمراتِ الكبيرةِ وتراضت على توزيعها على مقتضى العدالة، باعتبار أنَّ الاختصاصَ بها مثارُ أكبرَ الحروبِ العالميةِ"(٣٤). **وينبغي التنبيه على أنَّ الإمبراطوريةَ الغازيةَ لم تخرجْ من المستعمراتِ راضيةً بعدالةِ توزيعِ الثروةِ لا عن طواعية، وإنما قسراً، عندما عجزت عن إدارةِ الشعوبِ الثائرةِ مِنْ أجلِ الحريةِ، فالشاهدُ هنا: أنَّ الاستئثارَ البغيضَ بالموادِ الخامِ يُوَلِّدُ الإحنَ والصراعاتِ، ممَّا يدل على أنَّ روحَ الفرقةِ مستشريةٌ في الأرضِ، مسيطرةٌ عليها، بحيث صارت كلُّ دولةٍ جزيرةً منعزلةً، تتعامل مع الآخرياتِ من منطلَقٍ عدائي، ولا تفكرُ في مصالحِها إلا على حسابِ غيرها. فكيف لا تعصف رياحُ التدميرِ بالأرضِ؟! و كيف لا تلوثها الدماء القانية إذن في ظل هذه القيم العفنة؟!**

ويستخدمُ "الحكيمُ" – متقنعًا وراء الشاعرِ – تقنيةَ تفسيرِ الحاضرِ والمستقبلِ من خلال التاريخ؛ فسلوكُ الإنسانِ العدائيِّ تجاه مناجم الموارد الطبيعية، من توابل الهند ومعادن أمريكا النفيسة نبوءةٌ لما سيكون منه في الفضاءِ الخارجيِّ، "حيث اتضح أنَّ بهذا العالمِ الجديدِ كنوزًا هائلةً ومغانمَ ضخمةً تُغري على النهبِ والسلبِ. وسرعان ما دخلَ البرتغالُ الساحةَ، .... وعندئذٍ نشأ صراعٌ سياسيٌّ وخلافٌ حادٌ بين الأسبان والبرتغال، وهو الخلاف الذي سيُحْسَمُ فيما بعد بإعلانِ أولِ تقسيمٍ استعماريٍّ للعالمِ ويباركه البابا اسكندر السادس. حيث عُقِدَت اتفاقيةُ نورد سيلاس Nordesillas في شهر يونيو ١٤٩٤م بين ملك البرتغال وملك أسبانيا ..... ثم اشتد الصراعُ الضاريُّ بعد ذلك بين المستكشفين، حيث ما لبثت بريطانيا وفرنسا إرسال حملاتها للاستئثار بجزءٍ من مغانمَ هذا العالم الجديد، خاصةً بعد أنْ لاحظَ البريطانيون والفرنسيون السفن الأسبانية وهي تعودُ محملةً بكنوزٍ هائلةٍ مِنْ منهوباتِ هذا العالم"(٣٥). **ومِنْ المستغربِ أنْ تباركَ الساطةُ الدينيةُ التقسيمَ الاستعماريَّ للعالمِ متورطةً في هذه الشراكةِ المخزيةِ.**

أما عدوى الاستلاب والانتهاب التي تبارت القوى فيها فهي بدايةُ لتخلفِ الحضاراتِ القائمةِ في تلك البقاعِ قبل أنْ تقعَ الأعينُ الطامعةُ عليها؛ "وما بالنا نذهب بعيدًا والتاريخ ينهض شاهدًا على أنَّ عددًا مِنْ هذه المجتمعاتِ كانت مهدًا لحضاراتٍ

(٣٤) من معالم الإسلام، السابق نفسه، ص ٢٨٨.

(٣٥) الليبرالية المتوحشة: رمزي زكى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

إنسانيةٍ .... وكل هذا يؤكد، أنَّ التخلفَ الذي يزين على هذه البلاد في الآونةِ الراهنةِ لم يكن قَدَرًا حتميًا ... بل مرحلة محددة في تاريخِ تطورِها. وكانت الكشوف الجغرافية وبدء اقتحام الغرب الأوروبي لها بداية هذه المرحلة.

..... ونعود الآن إلى ما فعله الأسبان في أمريكا الجنوبية، وكيف أدت ممارستهم الوحشية والمرعبة إلى تدمير حضارة الآزتيك والإنكا والمايا، وإلى إبادة سكان هذه الحضارات ونهب ما كان يملكونه من معادنَ نفيسةٍ ..... ومنذ السنين الأولى، صمم الغزاةُ الأسبان والبرتغال على نهب كمياتٍ هائلةٍ مِنْ الذهب والفضة التي كانت تذخر بها هذه البلاد الآمنة"(٣٦)

أدَّت هذه الممارسات اللاإنسانية إلى رحلةٍ عكسيةٍ للمجتمعاتِ المغزوَّةِ من الحضارةِ إلى التخلفِ بسببِ استيلاءِ الغازي على كلِّ ما له قيمة، وتحويله منابع الثروة عن مسارِها الطبيعيِّ إلى مسارٍ جديدٍ تصبُّ فيه في جيوبِ أساطين الغزو، تاركةً أصحاب هذه المنابع في إملاقٍ، بحيث لا يكون هناك مجالٌ لمزيدٍ مِنْ التقدمِ، بل للحفاظِ على الحالِ القائمةِ في ظلِّ غيابِ تمويلٍ باد واندثر. يحكي أحدُ أبناءِ هذه الأممِ أثرَ الاستعمارِ على بني جلدته قائلًا: "عندما جاء الأسيادُ البيضِ إلى بلادِنا .. علَّمُونا الخوفَ، وأذبلوا ورودَ الآخرين. لقد ذبلت الحياة، وماتت قلوب الورود. ملوكهم مزيفون، طغاة على عروشهم، قساة على ورودهم، نهابون في النهار، منتهكون في الليل .. إنَّهم قتلة العالم. كانت هذه هي بدايةُ فقرِنا، بدايةُ الإتاوةِ والاستجداءِ، .. بدايةُ السلبِ ... بدايةُ الحروبِ المتواصلةِ، والعذاب السرمدي"(٣٧). **إنَّ هذا العذاب وذلك الخوف، وموت القلوب في ظل هذا الطغيان ضمانٌ للحفاظ على وجودِ المستعمرِ بتدميرِ الحضارةِ المغزوةِ، لتذوبَ في الهويةِ الأقوى للغازي مِنْ ناحيةٍ، وفي ظلِّ التخلفِ لا يمكن لتلك الشعوبِ أنْ تدركَ حقوقَها، وبالتالي تطالب بها من ناحيةٍ أخرى.**

تلك الصورةُ التي يرسمها ذلك البائسُ للأباطرةِ هي صورة كلِّ طاغيةٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهي هي رؤيةِ الشعبِ البسيطِ لنمرودِ وللملك الذين يتداولان ساطة بابل في "هبط الملاك في بابل"، ولو كوللوس في محاكمته، والملك في "الملك هو الملك"، ومِنْ الغريبِ أنْ يتلاقى الوجدانُ البشريُّ أجمع في أدبياته على رسم هذه الصورةِ البشعةِ للطغيانِ، التي تعكسُ إرثًا هائلًا من معاناةِ البشرِ مِنْ

(٣٦) الليبرالية المتوحشة، السابق نفسه، ص ٢٧٠، ٢٧٥.

(٣٧) التصدع العالمي، العالم الثالث يشب عن الطوق: ك. س. ستافريانوس، ترجمة: موسى الزغبي وعبد الكريم محفوض، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٨م، ص ٧٩.

الحروبِ الخانقةِ للسلامِ والعلاقة التي لم تتأسس على التكافؤ، بل على جدليةِ السيدِ والعبدِ، وتداولهما الأدوار، خلال صراعٍ ينقلُ المهزومَ إلى خانةِ العبيدِ، ويُكْسِبُ المنتصر سمت السادة، بحيث لا يعود مجالٌ لسلامٍ ولا وئامٍ. وتلك قمة رفضِ الآخر، التي تكرِّسُ التخلفَ الذي يحمي السيدَ القاهرَ للعبيدِ. "ذلك لأنَّ التقدمَ نتيجةُ حريةِ الإبداعِ، والنهضةُ تتحققُ بإطلاقِ سراحِ الطاقاتِ الخلاقةِ، وإفساح السبيل أمام أقصى درجاتِ الحوارِ التي تعني أقصى درجاتِ الاجتهادِ التي تنطوي على المغايرةِ بالضرورةِ، واحترامِ حقِّ الاختلافِ بالقطعِ، والتسليمِ بأهميةِ التجريبِ في كلِّ الأحوال. ويرتبط ذلك بمبدأ أساسيٍّ مِنْ مبادئ الدولةِ ... هو مبدأُ التسامح الذي يصونها مِنْ مزالقِ "التعصبِّ" بكلِّ أشكالِه، ويحميها مِنْ مخاطر الديكتاتورية بكلِّ ألوانِها، ويحجب عنها شرورَ الاستبدادِ المدني الذي لا يختلفُ في آلياتِه عن آلياتِ التعصبِ بكلِّ تجلياته"[٣٨]. **هذا التعصب يشكل مع الاستبداد ورفض الآخر وجها عملةٍ واحدةٍ هي العداءُ، بينما التسامح والسلام وجها عملةٍ أخرى، وليست الحربُ هي المعوقُ الوحيدُ للسلام؛ فهي - كما تقدم - ليست إلا وجهًا من وجوه رفض الآخر، وله وجوهٌ أخرى تَحُولُ دون السلام؛ منها:**

٢-رفض الاختلاف:

الذي يظهر في:

رفض ميول الآخرين المغايرة لميولنا، كما في النص الآتي من: "هبط الملاك في بابل":

"نجيب: (إلى عاقي) وأنتَ أيضًا مِنْ نينوي؟

عاقي: بل شحاذٌ مِنْ بابل.

نجيب: وما دمتَ مِنْ بابل فخذ خمسة قروش.

عاقي: إنني لا آخذ أكثرَ مِنْ مليمٍ واحدٍ. لقد أصبحتُ شحاذًا لأنني أحتقرُ الذهبَ!.

نجيب: أنتَ تحتقرُ الذهبَ أيُّها الشحاذ؟!

عاقي: لا شيءَ في الدنيا يستحقُ الاحتقارَ أكثرَ مِنْ هذا المعدنِ الحقيرِ.

نجيب: سأعطيك قطعةً ذهبيةً، مثل هذا الشحاذ القادم مِنْ نينوي.

(٣٨) هوامش على دفتر التنوير: جابر عصفور، القاهرة، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ٣٨٥.

عاقي: لا أريدُ سوى مليمٍ واحدٍ.

نجيب: سأعطيك عشر قطع ذهبية.

عاقي: أبدًا.

نجيب: عشرون قطعة ذهبية.

عاقي: ابعد عني يا عبقري المال.

نجيب: ثلاثون قطعة (عاقي يبصق على الأرض) أنتَ ترفضُ ثلاثين قطعةٍ ذهبيةٍ من مديرِ أكبرَ بنكٍ في بابل.

عاقي: إنْ أعظمَ شحاذٍ في بابل يطلبُ مليمًا واحدًا مِنْ بنكِ نجيب وأولاده ..

نجيب: ما اسمُكَ؟

عاقي: عاقي.

نجيب: مثل هذه الشخصية تستحق المكافأة. أيها الخادم أعطه ٣٠٠ قطعة ذهبية. (ويعطيه الخادم جوالًا مليئًا بالذهبِ. ويتحركُ الموكبُ ناحية اليسارِ)"(٣٩)

إنَّ نجيبَ عاشقُ الذهبِ بل عابدُه يرفضُ الرأيَ الآخرَ .. يرفضُ رأيَ عاقي المختلفَ حول الذهبِ فهو لا يعشقُه مطلقًا بل يحتقرُه مما يعني أنَّهما على طرفي نقيض: أحدهما يحتقر الذهب مما يعني أنَّه لا قيمةَ للذهبِ عنده ولا للمالِ وهذا يعكسُ حريتَه – بل تحررَه – من الاستبعاد .. استبعاد المالِ له. أما الآخر فلا يكتفي بأنْ يكونَ عبدًا للذهبِ – قُدْسه الأقدس – فيقهرُ بالذهبِ غيرَه ويستعبدهم بماله، ورفْضُ عاقي نوالَه يجعله أسمى منه، بل إنَّه يُعَرِّيه أمام ذاته، حين يكشف عبوديةَ نجيبٍ في مواجهةِ حرية عاقي التي يقاتله للتخلصِ منها حفاظًا على كيانه، وكلما تمسك عاقي برفضه أخْذ أكثر مِنْ مليمٍ زَايَد نجيبه حتى لينزلَ طواعيةً عن جوالِ ذهبٍ كاملٍ به ثلاثمائة قطعة، في مفارقةٍ غريبةٍ: تمسكه بالذهب يهزه عاقي الشحاذ ليثبتَ تفوقَه أو على الأقلِ نديته لرءوسِ المجتمعِ، ونجيبُ يتركُ له الذهبَ فلا يهتزُ ولا يتهافتُ عليه، ووَصْم عاقي للذهبِ بالحقارةِ لمزٌ ضمنيٌّ لنجيبٍ؛ إذ لا يقدس الحقير إلا الأحقر. نجيب هو

(٣٩) هبط الملاك في بابل، السابق نفسه، ص ١٤٤.

العبدُ الحقيقي إذن، وإذا ما وصف نجيبُ بنكه بالأكبر عانيًا نفسه في مجالِ المالِ وصفَ عاقي نفسه بالأعظم في ميدانِه: الكدية، فهما سواءٌ، كلاهما رأسٌ في مهنته.

ويَبْرُزُ تناقضُ نجيب في أنَّه يرفضُ اختلافَ رؤيةِ عاقي- الآخر- عن رؤيته للذهبِ، لكنه يرفض كذلك أنْ ينتقلَ عاقي من العدمِ إلى الغنى فيدانيه.

وإذا وصف عاقي نجيبًا بالعبقرية في جمعِ المال أثبت لنفسه هذه السمةَ بشكلٍ عملي، حينما ينجح في انتزاعِ جوالِ ذهبٍ مِنْ عبقري الجمعِ، وهو بهذا ينزع هذه العبقريةَ عن نجيب، محولًا إياه عن جمع المالِ- منبع عبقريته- إلى تفريقه- نقيضها- في سخريةٍ عنيفةٍ من نجيب.

ويتخذُ رفضُ اختلافِ الآخر شكلًا آخر في مسرحية "في قطرة ماء"، هو: رفض المنافس، والمنافسة غير الشريفة:

" (يسمع صوت رجل من بعيد يردد هذه الجملة "سأقتل هذا الرجل .. سأقتل هذا الرجل")

الساحرة الأولى: ... إنَّها أفكارُ أحدِ البشرِ تهمسُ بجريمةٍ.

الساحرة الثانية: إنَّ هذا الرجلَ يوشكُ أنْ يقترفَ جريمةً في سبيل الشهرةِ، إنَّه يعبدُ الشهرةَ.

.....

صوت أفكار الرجل: سأقتلُ هذا الرجلَ. لقد رسمْتُ خطتي بدقةٍ وإتقانٍ. لن يكشفَ أحدٌ أمري، عند ذلك ستزول العقبةَ التي في طريقي وسأبلغُ قمَّةَ الشهرةِ، سأبلغُ قمَّةَ الشهرةِ. سأبلغُ قمَّةَ الشهرةِ. بعد أنْ يزولَ مِنْ طريقي لن يبقى غيري في الميدانِ. سأكون أشهرَ مِنْ نارٍ على علمٍ. سيكون اسمي على كلِّ لسانٍ. إنَّ الشهرةَ ثمرةٌ شهيةٌ ما أسعد مَنْ يقطفها وما ألذ أنْ يكونَ الإنسانُ شهيرًا. إنَّ هذا الرجلَ هو العقبةُ التي في طريقي. طالما هو على قيدِ الحياةِ فلا أملَ لي في بلوغِ الشهرةِ.

(يقوم ويدير مفتاح الراديو فتنبعث موسيقى هادئة) "[٤٠]

(٤٠) فى قطرة ماء، السابق نفسه، ص ٦، ٧.

لقد امتلأ قلبُ هذا الرجل بعشقِ الشهرةِ وعبادتِها؛ فلا يجدُ حرجًا في قتلِ غريمه الذي يظنه العقبةَ الوحيدةَ في طريقِ شهرتِه، وهذا يدل على تَمَيُّزِ الآخر عنه، وتفوقه عليه، وإلا لما شكَّل حائلًا دون أنْ يشارَ إليه بالبنان ويَذيعَ صيته كما يريد، وسعيه للشهرةِ ولو في طريقٍ مُعبَّدٍ بدماءِ الخصومِ وإزهاقِ أرواحِهم يدخله فيهِمَنْ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة المجادلة، من الآية(١٩)].

ويتضمن هذا المقطعُ خطةَ الرجلِ في رحلتِه نحو معبودته الشهرة، هذه الرحلة لكي تتمَّ لابدَّ لها مِنْ خُطوةٍ انتقاليةٍ، هي قتل خصمِه الذي يعوقُ بلوغَه مأربِه مِنْ الشهرةِ، ممَّا يتطلَبُ وضعَ خطةٍ لهذا القتلِ، ينسجها هو بإحكامٍ، مما يدل على قدرتِه الفائقةِ على التخطيطِ التي إنْ وظفها في عمله لا في المنافسة لصار له شأنٌ آخر- إنْ كان مِمَّنْ يحسنون تقديرَ الذاتِ دون تضخيمٍ لقدراتِه.

وبهذا اشتمل المقطعٍ على تدرجٍ مِنْ مكونٍ حالي فكري هو: التخطيط لقتل الخصم، إلى مكونٍ إرادي هو الشهرة الواسعة بلا منافس التي هي غايته، ووسيلته الوحيدة إليها هي القتل.

أما استماعه إلى موسيقى هادئةٍ عقب بَوحِه بما يؤرقه لذاته، فلعله تنبيهٌ من المؤلف إلى أنَّ نفسَه مطمئنةٌ إلى ما عزم عليه؛ فهذا الفعل لا يؤله في شيءٍ، وكأنما هو فعلٌ عاديٌّ عنده، لتشكل الموسيقى الهادئة تناقضًا مع أفق توقع المتلقي، الذي يرتقب موسيقى صاخبةً عاصفةً تناسب القتل الوشيك، وتوافق بهدوئها في الآن ذاته تبلد أحاسيسه نحو جُرمِ إزهاقِ الروحِ؛ ليبرزَ لنا عمق ترديه في هاوية الشر، الذي بشم به وجدانه، بلا منافسٍ مِنْ نفسٍ لوامةٍ ترده عن غيِّه، فلا رقيبَ ولا حسيبَ بعد أنْ رانَ كسبُه السيئ على قلبه.

والأثر الماكبثي الشكسبيري واضحٌ في هذا المقطع؛ إذ يقتل ما كبث كل من يقف في طريق طموحه إلى المركز الأعلى، حتى مليكه نفسه، ليعتليَّ عرشًا يتأرجحُ على دماء الضحايا من منافسيه وخصومه، بتشجيع مِنْ زوجته، و"الطبع المتفرد لدى البطل يقع خارج حدود الفهم المعاصر لما هو محتملٌ مِنْ المشاعر والتصرفات. إنَّه أضخم -وبهذا المعنى فهو أكثرُ إثارةً للخيال- مِنْ الإنسان الخاص، الاعتيادي، والمتوسط. لقد

انطوى على شيءٍ ما "خرافي"، وإبليسي و"شيطاني" .... مما يؤثر في مَنْ حوله، ومما يتعذر استخلاصه مباشرة مِنْ الظروفِ الملموسةِ للحظةِ القائمةِ.

إنَّ الليدي مكبث تقدمُ تعليلًا ممتعًا لهذا البعدِ الشيطاني، وهي تعترضُ على زوجِها المترددِ الذي خُيِّلَ إليه أنَّ الأمرَ المَيِّتَ هو فوق القوى البشرية. "**يتعين عليك لتصبحَ أسمى مما كنت عليه، أنْ تكونَ أسمى من الإنسان**" .... إنَّه تفسيرٌ رائعٌ، ودقيقٌ جدًا، مِنْ أجلْ ألا يبقى حجيرة في المنظومة الفروسطية، وجزئيًا من العالم القديم، يتعين على الإنسان أنْ يصبحَ أسمى من الإنسانِ، أنْ يصبحَ شيطانًا .... طالما لم يصبح بعد جزئيًا من المجتمع الجديد"[٤١]. **ولن يجتازَ البرزخَ الفاصلَ بين الإنسانِ والشيطانِ- ليحققَ ما يحسبه تساميًا عن الواقع الإنساني- إلا بقتل الخصوم، ليلجَ عالمَ الأبالسة بعد أنْ يودِّعَ الإنسانيةَ بلا رجعةٍ، هذا ما عزم عليه عبدُ الشهرةِ هذا، ليتجاوزَ حدَّ الطموحِ المقبولِ إلى الطمعِ المرفوضِ، الذي ينذرُ بهلاكِ صاحبِه حال رفضِه وجود منافسين مختلفين عنه، مما يمنحهم نقطة تميز عنه، فيعمد إلى إنهاء المنافسة خارج حلبتها بالتخلص من الخصم نهائيًا قبل بَدءِ المباراةِ، فتخلو له الساحة بانعدام منافسٍ يُبْرِزُ بعض ما يعتوره مِنْ نقصْ يميز منافسه عليه.**

ويتخذ رفض الاختلاف:

شكل الاستنكار من الأقران في نص "شاعر على القمر":

"الرائد الأول: قل لصاحبنا هذا يتحرك قليلًا...

الرائد الثانى: لا فائدةَ مِنْ المحاولةِ .... فلنتركْهُ إذن جامدًا يحملق هكذا ولنقمْ نحن بالمهام الملقاة علينا ...

الرائد الأول: أخشى أنْ يكونَ مريضًا؟!..

الرائد الثانى: لا .. ليس إلى هذا الحد...

الرائد الأول: كيف سمحوا لمثله بالرحلة...؟

الرائد الثانى: ومع ذلك فقد تدرب معنا التدريب الكافي .. ولم يبد عليه شيءٌ غير عادي...

(٤١) الطباع المتفردة والظروف: س.غ. بوتشاروف، ترجمة د/ جميل نصيف التكريتي، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٥م، ص ١٣٢، ١٣٣.

الرائد الأول: ولكن ما كدنا نخرج مِنْ جاذبيةِ الأرضِ .. ويرى الأرضَ تَبْعُدُ .. ويصغر حجمها حتى لمعت عيناه ببريقٍ غريبٍ .. ولم يصبحْ الشخصَ العادي..."(٤٢)

إنَّ رائديّ الفضاءِ يتعجبان مِنْ مسلكِ الشاعر المغاير لمسلكِهما وما اعتادا عليه، مما يُحْدِثُ نوعًا مِنْ الاغترابِ بينهما وبينه، لكن بشكلٍ متباينٍ بين الرائدين؛ إذ يبدو أحدهما أكثر تعاطفًا مع الشاعر واهتمامًا به، حين يتساءل عن خوفه مِنْ أنْ يكونَ مرجعُ هذا الجمودِ مرضَ الشاعر، بينما الآخر أكثر جمودًا إلى درجةٍ شبه آليةٍ، يكاد معها يخلو مِنْ أيَّةِ نزعةٍ إنسانيةٍ، وينصب اهتمامه على العمل وحده، مركزًا على دقة الأجهزة والالتزام بالبرنامج المحدد، لينتهي إلى تجاهل الشاعر مِنْ أجل تأدية ما كُلِّفَا به مِنْ مهامٍ. أما زميله فينزع إلى وصف(٤٣) أثر مغادرة الأرض على الشاعر وابتعاده عنها، من غرابة أطوار ظهرت في التماع عينيه الغريب، مما أدى إلى حكم رائد الفضاء عليه بأنَّه إنسانٌ غيرُ مألوفٍ.

وبهذا يستمر الحكيم في اللعب على محور اختلاف الشخصيات، بين عقلٍ خالصٍ تمثله إحدى الشخصيات وعقلٍ ممتزجٌ بشيءٍ مِنْ العاطفة يمثله الرائد الأول؛ فبعد أنْ بدا أميلَ إلى العاطفة إذا به يتساءل تساؤلًا استنكاريًا حول كيفية السماح لهذا الشاعر بالسفر في هذه الرحلة، وهذا يتضمنُ التشكيكَ في أهليته لممارسة المهام المنوطة برائد الفضاء، ويؤيد زميله ذلك بأنَّه "تدرب التدريب الكافي .. ولم يبد عليه شيءٌ غير عادي"، مما يعني أنَّه شخصٌ غيرُ صالحٍ لهذه الوظيفةِ، وهذا الحكم تأسس على رفضهما أيّ اختلافٍ وتمسكهما بما اعتادا عليه؛ لذا ينفصلان عنه إلى ممارسة العمل.

ويصير رفض الاختلاف بين رائدي الفضاء والشاعر صريحًا، برفضهما رأيه المخالف لهما.

"الرائد الثاني: ندفن هذه الكنوز هنا؟! .. أهذا ما تتصور؟!

---

(٤٢) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ٩٧، ٩٨.

(٤٣) ذهب د/ أحمد عوين إلى أنَّ الوصفية خصيصة لأدب يوسف عز الدين عيسى، راجع له: المنزع الوصفي عند الدكتور يوسف عز الدين عيسى، الإسكندرية، هيئة الفنون والآداب.

الشاعر: هذا ما يجب أن نفعل ...
الرائد الأول: نحن نرفضُ هذا الرأيَ ..
الرائد الثاني: كل الرفض .. لأنَّه حماقةٌ ..
الشاعر: كلٌّ منَّا حرٌّ في رأيه .. لستُ مِنْ رأيكم .. تصرفوا كما تشاؤون..."(٤٤)

ويلاحظ افتقاد رواد الفضاء لثقافة قبول الآخر؛ إذ يرفضان الرأيَ المختلفَ تدريجيًا؛ فمَنْ يجمع بين العقل والعاطفة يعبر عن رفضه الرأيَ الآخرَ، بينما يتطور الأمر لدى العقلِ الصرفِ ليجاوَز رفضَ الاختلافِ إلى تسفيهِ صاحبِه، ووسمه بالحماقة، مما يُبْرِزُ الاختلاف بينهما من هذا الجانب.

أما الشاعر فيعبر عن موقفٍ مغايرٍ، يتقبل معه الرأي الآخر، مُعبرًا عن حريةِ كلِّ فريقٍ في رأيه، ويترك لهما حريةَ التصرفِ دون محاولةٍ منه للحجر على حقهما في تنفيذ ما يوافق فكرهما. فهل يُقَدِّرَان هذا التسامحَ منه أم يواصلان رفضهما للاختلافِ ليتطورَ الأمرُ بشكلٍ أكثرَ تعسفًا؟

"الشاعر: لن أعود معكما وهذه الصخور معنا ... إني أطلب منكما الخيار بين أمرين:
إما تلقيا بهذه الصخور، وإمَّا أنْ تلقيا بي ..
الرائد الأول: هذا اختيارٌ عسيرٌ..! .... ونحن لا نستطيع العودة إلى الأرض بدونك ..
الشاعر: وأنا لن أتحرك من مكاني هذا ... لن تستطيعا حملي بالقوةِ معكما ..
الرائد الأول: نرجو أنْ لا تلجئنا إلى استخدام القوة ...
الشاعر: أهو تهديد؟!..
الرائد الثانى: أنتَ الذي تتحدى؟ ...
الشاعر: فليحاول أحدكما أنْ يلمسَنى؟! ..
الرائد الأول: ماذا ستفعل ...؟
الشاعر: سأدافع عن نفسي ..
الرائد الثاني: (ينتحي بالرائد الأول هامسًا) وما العمل الآن ..؟

(٤٤) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ١١٩.

.....

الرائد الأول: لو استطعنا أنْ نفاجئه بلطمةٍ تفقده صوابه .. ثم نحمله رغمًا عنه ..

الرائد الثاني: ليس هذا بالأمر السهل ... ومع ذلك .. فلنحاولْ ...

الرائد الأول: نعم ... فلنحاولْ .. ليس أمامنا سبيلٌ آخر .."(٤٥)

إنَّ الشاعرَ يُعَبِّرُ عن حقِّه في الاختلافِ في الرأي بشكلٍ عمليٍّ يُحَوِّلُ فيه هذا الحقِ إلى عملٍ يُثْبِت رفضَه لسلكهما بامتناعه حتى عن إقرارهما ضمنيًا على ما عقدا عزمهما عليه، حينما يمتنع عن العودةِ إلى الأرضِ لإصراره على تحقيق سلامٍ يَعْجَز عن إرساء قواعده.

بينما يمتدُ رفضُ اختلافِ الآخر والإصرار على الهيمنةِ عند رائدي الفضاءِ، فيرفضان العودة إلى الأرض بدونه، ملوحين بشهر سيف القوة في وجهه لإجبارِه على النزولِ على رغبتهما، تُرى أيذعن لهما، أم يتشبث بمقاومته متمسكًا برأيه؟

في تقديري أنَّ الأمرَ تجاوز ثقافةً مغايرةً تحرك كلَّ جانبٍ: رفض الآخر والاختلاف في مواجهة التسامح وتقبل الاختلاف إلى دفاعٍ عن الكينونةِ ضد انتهاكٍ شاملٍ بتحطيم الإيمانِ المطلقِ بالسلامِ على صخرة العصبية، التي تُطَوِّرُ الانتهاك- أو إنْ شئتَ الإخصاء الفكري المعنوي- برفض الفكر المغاير إلى الانتهاك المادي الجسدي، بإجبارِ الآخرَ على تنفيذ ما يناقض قناعته الفكرية المرفوضة من الذات النقيضة وهو قناعتها هي، وهذه قمة التهديد المؤلم؛ ولذا يتحول الشاعر عن وداعته إلى تحدي القوة الغاشمة، بإعلانه مقاومته لها، مقاومته لمحاولةِ افقادِه هويته وإخضاعه للآخر، ولا يمكن عَدُّ هذا التطور خروجًا عن السمتِ المميز للشخصية، بل هو طبعي في ضوء ما تعانيه.

ولا يُقَابَلُ تحدي القوةِ بتراجعٍ منها أو حتى مراجعة، بل تزداد تمسكًا باستخدامِ القوة لإنهاءِ الاختلافِ وقلبِه إلى إذعانٍ، عندما يُجمعان أمرهما على إرغامه بالعنف البدني "مفاجأته بلطمةٍ تفقده صوابه، ثم نحمله رغمًا عنه**" على**

(٤٥) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ص ١٢٠ . ١٢٣.

ركوب الصاروخ إلى الأرض، حفاظًا على المظهر العام لنجاح الرحلة، في ظل تساط الأضواء عليها، وهذا انتقادٌ لثقافةٍ مجتمعيةٍ تسمح للمظاهر بالسيطرةِ على الأفراد فيرفضون أدنى اختلافٍ مع النمطِ السائدِ، ويئدون حرياتِ الأفرادِ الطبيعيةِ.

ولرفض الاختلاف وجهٌ آخر هو:

التمسك بالثبات ورفض التغيير؛ ويظهر هذا في: "هبط الملاك في بابل":

" نمرود: ..... إنني الآن على الأرضِ ولكني سأعودُ إلى عرشي. إنَّ هناك ملكًا آخر على
العرش الآن. ولكن سينزل عن العرشِ يومًا من الأيام.
الملك: لن يجئ هذا اليوم.
نمرود: لقد حدث ذلك باستمرارٍ منذ ألوف السنين.. أنا عطشان.."(٤٦)

لقد تعلم نمرود بالتجربة حتمية التغير التي نحَّته عن عرشه، وهذه الحتمية تجعله يؤمن بضرورة زوال السلطة من يدي الملك الحالي، وإذا كان الحكمُ لا يتداول إلا بينهما، فهذه السنة تمنحه فرصةَ العودةِ لاعتلاءِ العرشِ تارةً أخرى، إلا أنَّ رفض الملك الحالي للاختلافِ الذي يعني تحوله عن السلطة المطلقة إلى العدم .. إلى موطئ قدمي نمرود - كما يقضي دستورُ بابل - أي إلى المهانة المطلقة .. هذا الرفض يجعله يصبح متمسكًا بالثبات، وأنَّ ذلك اليومَ لن يأتي.

إلا أنَّ نمرود يعتمد على تقنيةِ تفسيرِ المستقبلِ من خلالِ دروسِ التاريخِ، مؤكدًا أنَّ تكرارَ هذا التغير، ينفي ما يرغب فيه خصمه مِنْ ثباتٍ، وينهي نمرود حديثه قائلًا: "أنا عطشان" ولا أرى ريَّه يتحقق بشربِ ماءٍ، كما تفهم كوروبي؛ فتسقيه بيديها من ماء الفرات، بل ينصرف - في ضوء ما تقدم - ليصيرَ علامةً دالةً على الشبقِ السلطوي، والتعطش إلى العودة إلى العرش الذي أُبْعِدَ عنه قسرًا.

(٤٦) هبط الملاك في بابل، السابق نفسه، ص ١٤٥.

ويتسع هذا التمسك بالثبات ورفض الاختلاف حتى يكادَ يصيرُ رأيًا عامًا لدى نماذج تمثل مختلف طوائف الشعب:

" (... الكل ينظرون في قلقٍ إلى الملك الذي جلس على العرشِ بلا حركةٍ)

الملك: إني أعيد الفتاة لتكنْ زوجةً لمَنْ يُحِبُّها أكثر.

(أصوات وضوضاء واضطراب من الجميع)

أصوات رجال: لي! لي! أنا أحبُّها! أحبُّها أكثر .. أعبدُها .. أموتُ فيها!

نجيب: إنَّها لي. أنا صاحب البنوك. أنا وحدي الذي أملكُ المالَ الذي يجعلها قادرةً على أنْ تعيشَ في أحسنِ حالٍ يليق بأصلِها.

الملك: أنتَ غلطان. يا صاحبَ البنوكِ. إنَّ الفتاةَ تحبُّ شحاذًا نسيتْ اسمَه، التقت به صدفة على شاطئ الفرات. وطلبتْ مني أنْ أكونَ شحاذًا وستطلب منكَ نفسَ الشيء.

(ويتراجع صاحب البنوك)

هل تريدُها؟ هل تتخلى عن ملايينِك مِنْ أجلِها؟ هل تريدُ أنْ تكونَ أفقرَ إنسانٍ في بابل؟ أيُّكم الشحاذ الذي لم يعد له وجود؟ هل تقبل يا تاجرَ النبيذ؟ وأنتَ يا بائعَ اللبنِ؟ وأنتَ يا رجلَ البوليسِ؟ هل تقبل أيُّها الجندي؟ وأنتَ أيُّها العامل؟ ليتقدمْ مَنْ يريد أنْ يتركَ كلَّ شيءٍ مِنْ أجلها (صمت) لا أحد يتكلم؟ هل تردون هدية السماء؟ (صمت) ربما وجدتْ فيها السيدةُ الحسناءُ فائدةً أخرى؟ ربما عاونتها في أعمالِ البيتِ؟ وطبعًا لابُدَّ مِنْ موافقة سلطاتِ الكنيسةِ.

طمطم: في بيتي؟ هذه الفتاة؟ إنَّ بيتي محترمٌ يا صاحبَ الجلالةِ.

الملك: لا أحد يريد فتاة السماء"[٤٧].

إنَّ الملكَ يفتحُ بابَ تجربةِ شعبه حين يمتحنهم في حبِّ "كوروبي" التي يتهافتون جميعًا عليها، وهي مَنْ فجَّرت ينابيعَ الشعورِ فيهم جميعًا، فنظموا جميعًا شعرًا في حُبِّها، والملك في الزواج مِنْ كوروبي هو الأكثرية في حُبِّها

(٤٧) هبط الملاك فى بابل، السابق نفسه، ص ١٦٨.

والحبُّ عبوديةٌ مطلقةٌ للمحبوب- في أعلى درجاتِه[٤٨] بحيث يطيعُه طاعةً مُطلقةً. وأيهم يطيق طلب كوروبي؟

إنَّهم يصيحون جميعًا، كلٌّ يزعم حبَّه لها، بل عبادته لها، بل استعدادَه للموتِ من أجلها، فإذا ما هدأت الجلبة سبقهم نجيب- رب المال وعبده في آنٍ واحدٍ- إلى إعلان جدارته بتملكها، اعتماداً على ماله، وأنْ يضمها- بوصفِها الأنفسَ بين النساءِ- إلى الأنفسِ بين المال، وهو الذهب الذي لا يباريه فيه أحدٌ، مما يكشف عن نظرتِه الاستهلاكية الشيئية للمرأةِ واستمداده قدرته على الفوز في هذا السباق المحموم من المال، ولا شيءَ غيره.

وهنا يعلن الملكُ الشرطَ المسكوتَ عنه، مُعريًا نفسه بيده قبل أنْ تفعلَها هي: مَنْ يرغب في الاقتران بكوروبي عليه أنْ يزهدَ في كلِّ ما يملك.. أنْ يتحررَ مِنْ كُلِّ عبوديةٍ تسيطرُ عليه، وبهذا يمكنه التلاقي مع الخالق مُخْلِصًا العبودية له دون شركاء، وهذا جوهر التوحيد. فمَنْ المخلص حقًا في توحيده الله؟ هذا هو محكُّ الاختبارِ الحقيقي في تقديري، فإذا كانت كوروبي فتاةً خلقها الله بيده مباشرةً كما فعل مع آدم أبي البشر، فالإخلاصُ في حبِّها في حقيقته إعلانٌ عن التحررِ مِنْ سلطانِ كلِّ ما يفنى، والخضوع لسلطانِ الباري الباقي وحده.

لقد أحبَّت متسولًا، وعلى الملكِ إنْ أرادها أنْ ينسى علامتَه وتاجَه، ويتحررَ مِنْ عبادةِ السلطةِ ويهيمَ معها. لكنه يعرضها على الجماعة وهذا إقرارٌ ضمنيٌّ بفشلِه في تحويلِ بوصلتِه عن السلطةِ إلى المحبةِ.

أما نجيب فيتحول تهافته عليها إلى إعراضٍ عنها عندما يعرف شرطها، ويجيب بلغةٍ غيرِ لفظيةٍ، بحركةٍ تُعَبِّرُ عن إيقاعِ شخصيتِه، وهو التمسك بكعبتِه الوحيدة الذهب التي سفك دماءَ الحريةِ على مذبحها، حفاظًا على هويته.. كيانه الذي يستمده مِنْ الذهبِ، فإذا فقده فقد ذاتَه ولم يعدْ له وجودٌ.

كلٌّ منهم جميعًا يرفض أنْ يكونَ شحاذًا، وكلٌّ منهم يرفض التغيير، ويصر على ثباتِ وضعِه الذي يساوي التمسكَ بالعبوديةِ ورفضِ الحريةِ، يُعَبِّرُون

(٤٨) راجع: الحب في القرآن: محمود بن الشريف، القاهرة، الطبعة الرابعة، دار المعارف،٢٠٠٢م، ص١٨وما بعدها.

جميعًا عن هذا بالصمت نقيض الصياح المُعَبِّر مِنْ قبل عن التهافت عليها. حتى الساقطة ترفضُ عرضَ الملكِ بأنْ تؤوي الفتاةَ في دارِها على أنْ تعاونَها في أعمالِ البيتِ، وتلك الأعمال تحتمل قولين: أعمال المنزل على الحقيقة؛ مِنْ كنسٍ وطبخٍ وخلافه - وهو الظاهر، والآخر هو العمل الذي تمارسه المرأة لترتزقَ منه - وهو الرذيلة، ويُرَجِّح هذا قول الملك: "لابد من موافقة سلطات الكنيسة**". فهل عمل فتاةٍ في مهنة خادم يحتاج إذنًا مِنْ السلطة الدينية؟ قطعًا لا، أما الأخرى فتتطلب غطاءً شرعيًا من الكنيسة. فهل تقبل "طمطم"؟ قطعًا لا، إذ أنَّ ظهور "كوروبي" في بابل أدى إلى كساد سوقها، وانصراف الناس عنها بعد أنْ ظهرَ قبحُها مقارنةً بجمالِ "كوروبي"، ومِنْ المفارقةِ أنَّ مبررَ رفضِ الساقطةِ ادعاؤها أنَّ بيتَها محترمٌ، مما يولد الضحكَ لإدراك المتلقي أنَّه أبعد ما يكون عن ذلك من جانب، وأنَّ "كوروبي" هي العفيفةُ الشريفةُ حقيقةً. فكيف تُرفض إقامة المحترمةِ في بيتٍ مشبوهٍ بدعوى الاحترام؟**

أمرٌ آخر هو أنَّ "طمطم" لا تطيقُ رؤيةَ مَنْ تجردها مما يميزها وهو الجمال. فكيف تقبل أنْ يجمعهما سقفٌ واحدٌ؟ إنَّها بهذا تحكم على نفسها بموتٍ معنوي، حين تفقد هويتها وهي الفتنة.

مِنْ هنا: يخلصُ الملكُ إلى رفضِ البابليين جميعًا التحرر من عبوديتهم، على اختلاف طوائفهم، وإثبات أيهم صَدَقَ في حبِّه لكوروبي فتاة السماء. إنَّهم جميعًا يقولون: لا بعد أنْ قالت كوروبي لكل منهم: لا على وضعه الذي ترفضه؛ لأنَّها تريدُ لَمَنْ يشاركها الحياة أنْ يكونَ كما تريد وهي تصر على الوقوف في وجه الملك قائلةً: لا ... للعرش، ووقوفها في وجهِ الملكِ معناه: "أنَّ هذا الملكَ ليسَ ملكًا مطلقًا. وإنما هو ملكٌ إلا قليلاً. إنَّ هناك أناسًا وبقعًا في الأرض لا يسقط عليها ظله .... ورَفَضَ الملكُ أنْ يكونَ شحاذًا. ورَفَضَتْ الفتاةُ أنْ تكونَ ملكةً .... فالفتاة أحبت شحاذًا ولا تريد ملكًا. ورَفضَ الملكُ أنْ يضحي بالعرشِ مِنْ أجلِها ... ورَفَضَ الناسُ جميعًا ورَفَضَت الفتاةُ!!

وأمام إصرارِ الفتاةِ لم يجدْ الملكُ والشعبُ حلًا إلا طردَ الفتاةِ مِنْ بابل .. إلا رفضَ هديةِ السماءِ.

وخرجت الفتاة مِنْ بابل فقد رَفَضَتْ بابلَ فرفضتها بابلُ .. فقد كان ظهورُ هذه الفتاةِ في بابل تحقيرًا لشأنِ بابل كلِّها .. حكومةً وشعبًا وقوانين وأخلاقًا. ولكن حرصَ الناسِ على ما عندهم

مِنْ مالٍ ودينٍ، حرصَ الناسِ على ما عندهم وعلى دنياهم جعلهم يطردون بنت السماء. .... ومعنى ذلك أنَّ الأرضَ قد رفضت السماء .. أنَّ الأرضَ قد أغمضت عينيها وقلبها على نور السماء، لأنَّ نورَ السماءِ يفضحها. ومعنى ذلك أنَّ الأرضَ فَضَّلَتْ أنْ تنطوي على عارِها .. وألا تكشفه حتى لو كان ذلك أمام السماء. إنَّها قصة الإنسان الذي قال للسماء: لا"(٤٩)

وهذا الرفض للآخر يتخذ شكلًا آخر، هو:

رفض اشتراك الآخر معي في الحق نفسه:

إذ يرفضُ ملكُ بابل أنْ ينازعه أحدٌ في حبِّ الجميلةِ " كوروبي":

"الملك: أحب كوروبي! .... جمالها يملأ كلَّ مدينةِ بابل، وأغاني محبيها تتردد في كلِّ مكانٍ حتى في قصري هذا.

(أحد رجال الحاشية يتغنى بجمال كوروبي بصوتٍ مسموعٍ)

إنَّ الملكَ لا يستحقُّها، إنَّ الملكَ لا يستحقُّها .. إنَّها جميلةٌ .. جميلةٌ ..

نمرود: هل سمعتَ؟ حتى الخدم قد تحولوا إلى شعراء.

خادم آخر: ملابسها مِنْ الضياءِ، ومكانها الأزقة ...

الملك: (في هدوءٍ) يا جلاد!

(مِنْ جهةِ اليسارِ عاقي في ملابسِ الجلادِ)

عاقي: مولاي

الملك: اقتل الخادم الشاعر.

الخادم: سنحرق مِنْ أجلِها ذلك الشحاذَ ..

عاقي: بكلِّ سرورٍ يا صاحبَ الجلالةِ. سنتخذُ إجراءاتٍ عنيفةً معه.

(ويخرج من ناحية اليمين)

الخادم: الجميلة ... الجميلة ... الجميلة.

(وينقطع صوته فجأة)

الملك: (في هدوء) كلُّ مَنْ يحبُّ كوروبي سوف يموت.

(٤٩) الذين قالوا لا: أنيس منصور، القاهرة، مجلة المسرح، وزارة الثقافة، ع ١٩، يوليو ١٩٦٥م، ص ص ١٣٤ – ١٣٦.

نمرود: في هذه الحالةِ ستشنق الجنس البشري كله!"(٥٠)

إنَّ الملكَ يحبُّ كوروبي، ويغارُ عليها، ولا يطيقُ أنْ يشاركَه أحدٌ في حُبِّها؛ لأنَّ هذا معناه منازعته فيما يملك، وينتقص مِنْ سلطانه المطلق؛ لأنَّ في الشراكةِ منازعةً للسلطة، وتطاولًا إلى المساواة، وانشغالًا بالصراع عن المتصارَع عليه؛ لذا اقتضت حكمةُ الخالقِ توحيدَ الألوهية، قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية (٢٢)]. **وملك بابل لم يترك الأمر للمنافسة بين المحبين، ليُثْبِتَ كلٌّ منهم أيُّهم أجدر بها وأقدر على إسعادها، إلا بعد أنْ ثبتَ عجزُه عن الوفاء بشرطها، فهو أولٌ وغيره آخر، وجوهر وجوده متحققٌ بقدر ما ينجح في نفي وجودِ الآخر؛ لأنَّ تحقيق وجودهما معًا مستحيلٌ، وهذا يدل على أنَّ ثقافةَ الصوتِ الواحدِ هي السائدةُ في المجتمعِ، ويدلُّ على هذا قولُ أحدِ رجالِ الحاشيةِ بصوتٍ مسموعٍ: "**إن الملك لا يستحقها **.."؛ فعدم استحقاق الملك لها نفيٌ لوجوده في مضمار حبِّ " كوروبي"، مما يمنح ذلك المنافسَ في حبِّها قدرةً على أنْ ينالَها، ويجعله في الوقتِ نفسه أرقى مِنْ الملك، فهو يهمِّشُ وجودَ خصمه ليضخمَ وجودَه ويعتلي على الملكِ تعويضًا عن معاناته من افتقادِ المساواةِ بين الحاكمِ والمحكوم.**

وحبُّ كوروبي يمنح ذلك الرجلَ مِنْ الحاشيةِ قوةَ الجهرِ بحبِّه لها، وعدم جدارةِ الملكِ بها، وأنَّه هو الأجدرُ بها في قصرِ الملكِ، بل على مشارفِ إيوانه بصوتٍ يَصُكُّ مسمعيه، دون خشيةٍ له ولا هيبة منه، إنَّها القوةُ في أقصى درجاتِها عندما يقتحم المنافس مضمار خصمه ويتحداه مزاحمًا إياه في عقرِ داره ... إنَّها قمةُ منازعةِ المَلِكِ على ما يظنه في حوزته، وتلك مفارقةٌ ساخرةٌ مِنْ المَلِكِ الذي لا يقدرُ على بسطِ سلطته حتى على قصره، تُحْدِثُ نوعًا مِنْ التقزيم له والإبرازِ لضعفه؛ فهو أعجز مِنْ أنْ يستأثرَ بامرأةٍ يتخذها زوجةً، وذلك مِنْ منابعِ توليدِ "الضحك تعبيرًا عن "البهجة المفاجئة" التي تنشأ عن إدراكِنا المفاجئ لبعضِ القوةِ والسيطرةِ في أنفسِنا مقارنةً بإدراكٍ خاصٍ لنقائص "الآخرين" أو حتى لنقائصِنا في مرحلةٍ سابقةٍ مِنْ حياتِنا، ....

(٥٠) هبط الملاك في بابل، السابق نفسه، ص ١٥٩.

إنَّ الضحكَ ينتجُ مِنْ إدراكِنا للتناقضِ الكبيرِ بين الإدراكِ أو الوجودِ الطبيعي الفيزيقي المادي لشيءٍ ما أو شخصٍ ما أو فعلٍ ما، وبين التصورِ العقلي الذي كان موجودًا لهذا الشيءِ أو الشخصِ أو العقلِ. واكتشافِنا لجوانبِ التعارضِ والتناقضِ بين ما كان موجودًا في أذهانِنا وما ندركه الآن بحواسِّنا هو سرُ انطلاقِ الضحكِ وتفجره"(٥١).

وقدرة التابع على مزاحمة المَلِك في حُبِّه تمنحه قوةً تجعله يدركُ أنَّ المَلِكَ بشرٌ عاديٌّ له نقائصٌ وتُمْكِن منافسته، وأنَّه ليس كاملًا، وإلا ما استطاع أحدٌ أنْ ينازعَه في حُبِّه للجميلة، ونقص ما ضاوي للتابع، حينما كان يذعن تمامًا للمالك ويرضخ له، ثم حرره الحبُّ بل التنافس فيه مِنْ تلك العبودية.

وبهذا يدرك المتلقي أنَّ تصورَه المتضخم للملوك بوصفهم قامة لا يمكن الدنو منها ولا مطاولتها تصورٌ زائفٌ، مترتبٌ على التناقضِ بين الصورةِ الحقيقيةِ الطبيعيةِ لشخصِ "المَلِك" والصورةِ العقليةِ للشخصيةِ الاعتباريةِ "المُلك"، عندها يتفجر الضحك في قوةٍ من غفلةٍ ماضيةٍ وحقيقةٍ آنيةٍ هي تقزم المَلِك الإنسان على حقيقته، بحيث يمكن مطاولته.

ولا يقتصر الأمر في التنافسِ على الأتْبَاعِ بل يتجاوزهم إلى الخدمِ - أدنى مَنْ في القصرِ- حسب التنميطات الاجتماعية المتداولة، وهنا يتجاوز المَلِكُ حدَّ رفضِ اشتراكِ المختلفِ الذي يمزق تفرد هويته، معه إلى رفض وجود ذلك المختلف المزاحم حفاظًا على كينونته - متلاقيًا في هذا مع ما تقدم عند الحكيم في شاعر على القمر- التي يدعمها بالقمع والقهر، فـ "بقدر غياب الحرية في المجتمع يغيب الحوار، وتسود لغة الصوت الواحد التي هي المقدمة الطبيعية للغةِ الإرهابِ. وإذا كان الإرهابُ إلغاءً لوجودِ الآخر، ونفيًا لحضورِ العقلِ، أو فعل اختيارِ المعرفةِ، فإنَّه يبدأ مِنْ حيث ينقطع الحوار ... إنَّ الإرهابَ يتولدُ مِنْ رفضِ لغةِ الحوارِ وشروطِه، أي مِنْ تسلطيه الصوت الواحد، مِنْ الإيمانِ بأنَّ ما تقولُه وحدُّك هو الحقُّ، وأنَّ الحقَّ ملكٌ خاصٌ لك، ومِنْ التسليمِ بأنَّ فردًا ما، فكرًا ما، زعيمًا ما، يمتلك ما يجعل منه الأعلى ويهبط بالآخرين إلى الدرك الأدنى، كأننا إزاء مجلى النبي

(٥١) الأنا والآخر: شاكر عبد الحميد، دراسة قدَّم بها للعدد ٢٧٤ مِنْ سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أكتوبر ٢٠٠١م، ص ١٦، ١٧.

الملهم، أو الصورة البشرية للحقيقة الكاملة. وليست الرصاصة أو السيف أو الخنجر هي وحدها أسلحة الإرهاب ...."(٥٢).

وهذا يؤكد على سعي الملك الحثيث لإثبات امتلاكه وحده الحقيقة المطلقة - وما حبُّ كوروبي إلا رمزٌ للمطلق - إنَّه صاحبُ الصوتِ الواحدِ يأمرُ فيطاع، لا نقاشَ ولا جدالَ ولا حوارَ، فتطور الأمرُ إلى منازعةٍ جدُّ خطيرٍ بالنسبةِ له؛ لأنَّه يزعزعُ الناتجَ الطبيعي لهذه المسكوكاتِ الثقافيةِ، وأنَّه الأعلى وغيرَه الأدنى، ولكي يحافظَ على هذا لا سبيلَ أمامه إلا تجاوز الإرهاب الفكري بثقافة الصمت - التي مزقَتْها أصواتُ المتغزلين في كوروبي- إلى الإرهابِ المادي، بقتلِ الخصمِ المنازعِ له فيما ظنَّ نفسَه وحده الأحق به؛ ولهذا يأمر الجلاد بقتل الخادم الشاعر، وهذا الخادم الذي حررنفسه مِنْ صمته وإذعانه لقمعِ الملكِ، حين نافسه في حبِّ كوروبي لن يصمتَ بعدها، بل يصيحَ والمتصورُ أنَّه يفعل هذا في قسوةٍ وغلظة: "سنحرق مِنْ أجلِها ذلك الشحاذ" .. متجاوزًا فرديته إلى التعبير عن الوجدان الجمعي؛ فإذا كان الشحاذُ الذي أحبَّته " كوروبي" هو الحائل بين أنْ تبادلَهم حبًّا بحبٍّ؛ لأنَّ قلبَها يفيضُ بحبِّ رجلٍ واحدٍ هو الشحاذُ القادمُ مِنْ "نينوي"، فإنَّه بذلك يحررها مِنْ هذا القيدِ، حتى يتاحَ للشعبِ كلِّه أنْ يشتركَ في حبِّها .. إنَّها دعوةٌ لهدمِ الأصنامِ كُلِّها التي تجرُ على الحرية، فكما حرره الحب يحرر المحبوب لتصيرَ العلاقةُ بينهما جدليةً، ولعل الشراكةَ في كوروبي - في باطنها - دعوةٌ للديمقراطيةِ ونبذ الحكمِ الفرديِّ.

وإن كان الخادم الشاعر مُدركًا أنَّ الشحاذَ والملكَ وجهان لعملةٍ واحدةٍ، والفارق الوحيد بينهما هو العَرَض .. ثوب الكديةِ وثوب المُلْكِ، لا الجوهر، كان ذلك تعبيرًا عن إحساسٍ بالنديةِ يتملكه، فها هو يبادلُ الملكَ وعيدًا بوعيدٍ، وإرهابًا بالقتلِ بإرهابٍ أبشع منه بالحرقِ - وما أصحاب الأخدودِ في نجران عن بابل ببعيدٍ - والعنف لا يولد إلا عنفًا أشد. إنَّه يواصلُ ممارسةَ حريته التي تؤلم الملك صائحًا: الجميلة .. ثلاثًا، إلى أنْ ينقطعَ صوته فجأةً بشكلٍ يوعزُ بقتله، وتلك الصيحة إشارة إلى استمرارِ المقاومةِ إلى النهايةِ، نهايةِ الظلمِ أو نهايةِ حياةِ

(٥٢) هوامش على دفتر التنوير، السابق نفسه، ص ٣٦٥، ٣٦٦.

المقاوم - لقد خرجَ الماردُ الجبارُ مِنْ قمقمه بعد حبسٍ طويلٍ، ولا مجالَ لعودته ثانيةً .. هذه هي الرسالةُ الضمنيةُ التي على الملكِ أنْ يدركها.

وإذا ما تزايد إرهابُ الملكِ الدموي، فحَكَمَ بالقتلِ على كلِّ مَنْ يحب "كوروبي"، حفاظًا على تفرده بحبها، فإنَّ نمرودَ يفتحُ الأعينَ على حقيقةٍ خالدةٍ، هي أنَّ عليه أنْ يقتل البشر جميعًا فلا يوجد مَنْ لا يحبها .. إنَّها رمزٌ يوحد البشرَ، هذا هو المعنى الظاهري، والمعنى الأعمق هو أنَّه على مَنْ يرغب في ألا يسمع صوتًا غير صوته أنْ يعتزلَ الجماعةَ، إلى مكانٍ يخلو فيه بنفسه، فلا يسمع إلا صوتَه، وتلك بوادرُ ريحِ تغيرٍ عاصفةٍ، "وأتصور أنَّ غيابَ ممارسةِ حقِّ الاختلافِ في كلِّ مجالاتِه ... هو الوجهُ الآخر مِنْ غيابِ الديمقراطيةِ السياسيةِ وتقلص ألوان الحوار المجتمعي ... فكانت النتيجةُ غلبةَ المونولوجية على الحواريةِ ....، وانتشارِ ثقافةِ الصوتِ الواحدِ التي لا تقبل الاختلافَ، وتلقي بالمغاير في حظيرةِ الاتهامِ أو العداءِ .... وما أحوجنا اليوم إلى استعادةِ الحيويةِ التي ترتبت على التسليمِ بحقِّ الاختلافِ، ورسوخِ أديانِ الحوارِ لدى الأجيالِ...، والخطوة الأولى لتحقيقِ ذلك هي تأكيد حق الاختلاف على مستوى الممارسةِ الفعليةِ لا الكلماتِ أو الشعاراتِ، ... بوصفِه الأمر الطبيعي والشرط الأول لاغتناءِ المعرفةِ والإبداعِ. ولن يكتمل معنى هذه الخطوة إلا بإشاعةِ الممارسةِ الديمقراطيةِ في كلِّ مستوياتِها ومجالاتِها، والقضاء على كلِّ أشكالِ التعصبِ، وإشاعةِ قيم التسامح والمرونة والانفتاح على الجديد.

.... والأصل في ذلك أنَّه لا معنى لتحريرِ أيِّ عقلٍ مِنْ غيرِ الاعترافِ الأولي والبدهي بحتمية الاختلافِ الناتجِ عن حريةِ بقية العقول المكافئة، ... بعيدًا عن النظراتِ العرقيةِ والمفاهيم الاستعلائيةِ التي سعت إلى التمييز بين العقول لتأكيد تميز عرقٍ أو جماعةٍ أو وطنٍ على غيرها من الأعراق أو الجماعات أو الأوطان..."[٥٣] **هذه الدعوة التحررية بدأها العبد الخادم في القصرِ، بل بدأت بهبوط كوروبي إلى بابل، في محاولةٍ للوصول إلى السلام المفتقد.**

ورفض الشراكة فيما يحسبه المتعصب حقًا مطلقًا له نقطةٌ يتلاقى فيها الحكيم مع دورنيمات، لكن بشكلٍ أبسطٍ:

(٥٣) نحو ثقافة مغايرة، السابق نفسه، ص ٩٧، ٩٨، ٩٢.

"المدير: ليس كلُّ الناس من رأيك .. هذه الكنوز على القمر هي ثروةٌ لبلدِك ... لدولتِك ..

الشاعر: لدولتي وحدها؟! ...

المدير: طبعًا ...

الشاعر: وبقية البشر؟!..

المدير: أيُّ بشرٍ؟! ..

الشاعر: ألا يوجد بشرٌ آخرون غيرنا في بلادٍ أخرى؟!

المدير: وما دخلهم هم ....؟

الشاعر: أليس لهم حقٌ في هذه الثروة؟ ...

المدير: وهل هم الذين جاءوا بها ...؟!

الشاعر: إذن هي لنا وحدنا؟! ..

المدير: هذا طبيعي ... وإلا ما كنا قمنا بهذه المجهودات .. وما كنتم أنتم ركبتم هذه المخاطر ...

الشاعر: هذه نهاية الرحلة إذن ...

المدير: وكانت رحلةً موفقة .. فتحتْ لنا بابَ ثراءٍ متدفقٍ.."(٥٤)

إنَّ مدير مكتب عمليات غزو الفضاء يصر على التمسك بثقافة الغازي، وهي أنَّ مَنْ يصل لشيءٍ يستأثر به وحده، ولا يُشرك فيه غيره، بدافع الأثرة ولعله يقتدي بأبي فراس الحمداني في قوله: "إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القطر" دونما ممارسة لعدالة توزيع الثروة، التي تسل السخائم من الصدور.

أما الشاعر فيقف منه على طرفي نقيض، معتمداً على حسِّه الإنساني العام، الذي يرفض أنْ يُحْرَمَ إنسان مِنْ شيءٍ يُتاح له، تأسيًا بفيلسوف المعرة في قوله المفعم بالحس الإنساني:

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

وما يُتوقع أنْ تجلبه الرحلة مِنْ ثراءٍ هو معيار نجاحها، لذا يُقَيِّمها المدير بالنجاح لترقبه ثراءً وافرًا منها.

وهناك صورة أخرى لرفض الاختلاف هي:

(٥٤) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ١٢٨، ١٢٩.

إذابة هوية الآخر وتعميم هوية الذات: تظهر في النص الآتي:

"الرائد الأول: .... والآن هلم نعلن إلى العالم خبر هذه الثروة العظيمة ..
الرائد الثاني: إلى العالم؟! .. أو إلى دولتنا وحدها؟! ..
الرائد الأول: إلى دولتنا وحدها بالطبع .. عندما أقول العالم فإنِّي أقصد دولتنا ..
الرائد الثاني: يجب أنْ نكتمَ الأمر إذن .. وأنَ يبقى الأمرُ سرًا .. لأنَّ الأمرَ لو شاع لتكالبت الدول الأخرى على هذه الكنوز ..
الرائد الأول: بالطبع .. يجب أنْ نكتمَ ذلك.."(٥٥)

إنَّ الفكر الاستعماري يسيطر عليهما؛ فأحدهما يرى أنَّ خبر هذه الكنوز يجب أنْ يقتصرَ على دولتهما، التي يضخمها رفيقه ليجعلها مرادفةً للعالم، و كأنَّه - باستعماريته - يريد أنْ تتضخمَ دولته لتبتلعَ العالمَ أجمع، أو يرى أنَّ بقيةَ العالم كمٌّ مهملٌ بالقياس إلى دولته، في تضخيمٍ مرضيٍ لهويةِ الذاتِ، تذوب معه هوية الآخر المختلف المرفوض، تبدو أطماعها في الاستئثار بهذه الكنوز دون بقية الدول.

ويُبرز النصُّ عمق الوعي بأنَّ هذا الفكر تدميري، يؤدي إلى التشرذم والتصارع مما يتطلب كتمان ما أعرفه عن غيري، حتى لا يسعى إلى الحصول على نصيبه منه بالقوة انسياقًا وراء النزعة الجاهلية التي أبرزها زهير بن أبي سلمى في قوله:

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

هذه الرؤية العصبية هي المسيطرةُ على الوجدانِ العالمي، بحيث صارت كلُّ دولته تسعى إلى مصالحها على حساب غيرها، بعد أنْ صار الآخر بالنسبةِ لها جحيمًا، فكيف لا تعصف روح التدمير بالأرضِ؟ و كيف لا تلوثها الدماءُ القانيةُ؟

هذه هي محصلةُ معوقاتِ السلامِ السابقة كلها .. الفرقة التي ترصدها عين القمر:

"الشاعر: كلُّ بقعةٍ في أرضنا أراها مِنْ هنا ....
الكائن٢: وبحار الدم نراها مِنْ هنا ..
الكائن٣: وتنهدات الهم نسمعها هنا ..
الكائن٤: وصرخات الرعب تفزعنا هنا ..

(٥٥) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ١١٣.

.....

الكائن٢: ومَنْ الذي يَصبُّ على الأرض البلاء ..

الكائن٣: ومَنْ الذي يتركُ فيها الجياع ..

الكائن٤: ويبذر فيها سوء الطباع .. وضراوة السباع ..

الشاعر: نعم .. وأسفاه .. هذه القارات في أرضنا بأطرافها السفلى المدببة كأنها العناقيد المدلاة ..

الكائن١: لكن اللون الأحمر هناك ليس النبيذ ..!

الكائن ٢: مَنْ يُصدق أنَّ هذه الياقوتة الواحدة مفتتة الأجزاء؟!..

الكائن٣: بين كلَّ جزءٍ وجزءٍ حدود وسدود ..

الكائن٤: من الأطماع والعدوان والظلم والبغضاء...!"[٥٦]

إنَّ الحكيمَ يبرزُ قدرًا مِنْ التباين بين الأرض والقمر، بوصفهما كوكبين مختلفين؛ ليُحدثَ نوعًا مِنْ التفرقة بينهما، ويظهر هذا في قدرة الإنسانِ الأرضيِّ على رؤية أدقِّ تفاصيل الأرض مِنْ على القمرِ، بينما العكس غيرُ ممكنٍ، إذ يعجز المرء مِنْ الأرضِ مِنْ إدراكِ أيَّة دقائق قمرية، فهو يرى القمرَ مجملًا دون تفاصيل. ولعل مرد هذا إلى أثرِ التغيرِ البيئي.

ولكن كيف يرى القمريون الأرضَ، أيرون الخضرةَ ومظاهرَ النماءِ والخصب مثل الشاعر أو يختلف الأمر؟

إنَّ أهلَ القمرِ يرون في الأرضِ الدماءَ، الدماء التي تموجُ بها، والخلافات التي تمزقها، والألم والرعب المنطلق مِنْ حناجرِ أهلها، ويُرجعون ذلك إلى أنَّ الطيبة ليست سلوكًا عامًا بين أهلِ الأرضِ. وعلى الرغم مَنْ تأسف الشاعر وتأمله لما يعتملُ في كوكبه ورفضه له، فإنَّ حُبَّه أو انتماءه لكوكبِه يجعله يخلع ما به مِنْ طيبةٍ على كثيرٍ مِنْ أهل الأرض، وينعتهم بالبراءة، لكنَّ القمريين ينفون ذلك، رادين ما بالأرض مِنْ فسادٍ وبلاءٍ إلى سوءِ طباعِ أهلها، التي تجعلهم يترکون الجوعى دون ما يسد رمقهم، بل يفترسونه كالسباعِ الضاريةِ .. إنَّ ما سبق التنبيه إليه مِنْ تمايز لا يؤدي للحوار التكاملي، وإنَّما للخلافِ بكلِّ مستوياته، ولعله كان نذيرًا بما تفور به الأرضُ الآن مِنْ تناحرٍ وإحَنٍ.

---

(٥٦) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ١٠٨، ١٠٩.

يؤلِمُ هذا كلُّه الشاعرَ، الذي يرى قاراتِ الأرضِ مِنْ أسفلِ (الجنوب) أقربَ إلى العناقيدِ المدلاةِ، لكن ما جدوى هذه العناقيد؟ إنَّ هذه العناقيد التي تَحَدَّث عنها الشاعر في تصوره للقاراتِ - لم تكن مصدراً للنبيذ، الذي يُعَدُّ في بعضِ الثقافاتِ شرابَ الاحتفالِ، لكنها عناقيد غضبٍ، عصيرها دماء البشر مِنْ ضحايا الحروبِ، الذين اكتسبت الأرضُ خضابها القاني مِنْ دمائهم. في تصورِ القمريين.

وقد ترتب على وجود هذه العناقيد تفتيتُ الأرضِ، بفعلِ الفواصلِ الطبيعيةِ بين القاراتِ - وهي المحيطاتُ - لتزدادَ السدودُ والحدودُ الفاصلةُ، كما أدَّت الأطماعُ لتبادلِ العدوانِ وتفاقمه.

وإذا كانت هذه رؤيتهم للأرض. فكيف يرون قمرهم؟

"الشاعر: لحسن الحظ أنَّ هذا القمرَ يحتفظُ بكتلتِه المتحدةِ ...

الكائن١: تُرى لو حضرتم هنا يا أهلَ الأرضِ جماعاتٍ مِنْ دولٍ وشعوبٍ مختلفةٍ منقسمةٍ، هل تحتفظون لقمرِنا هذا بوحدِته .. أو تفتتونه هو أيضًا إلى أجزاء ..

الكائن٢: كلّ جزءٍ يناصبُ الآخر العداءَ ..

الكائن٣: ويذبحُ السلامَ بسكينٍ ..

الكائن٤: السلام الذي عرفناه طوال الزمانِ .. وبحارنا الشاسعة مِنْ الرمالِ التي لا موجَ فيها ولا أنين...

الكائن٢: وبراكيننا بردٌ وسلامٌ..

الكائن٣: وضوؤنا على أرضِكم هالةً ذهبيةً تظلل الحب..

الكائن٤: وتنسج الأحلام..

الجميع: ولقمرِنا وجهٌ واحدٌ ينظر به إلى أرضِكم ويقول:

إني ثابتٌ على مبدأٍ واحدٍ هو السلام..

الشاعر: كفى .. كفى .. كفى.."[٥٧]

إنَّ خُلُوَّ سطحِ القمرِ مِنْ البحارِ والمحيطاتِ جعله كتلةً واحدةً مترابطةً، بلا إحنٍ ولا فرقةٍ ولا تشرذمٍ، فهو أحاديٌّ لا يعرفُ التفرقَ. وهنا يتساءلون عن:

(٥٧) شاعر على القمر، السابق نفسه، ص ١١٠، ١١١.

مصير القمرِ إنْ سيطر عليه أهلُ الأرضِ؟ إنَّهم يتوقعون أنْ يكونَ وصولُ الإنسانِ الأرضيِّ ذبحًا للسلام الذي يعمُّ القمر، وأنْ ستجعلَه مثل الأرضِ يموجُ بالبغضاء.

إنَّ قمرهم لم يعتد على الأقدامِ التي تمرحُ عليه ممزقةً أديم السكون، والبرا كين التي تدمر الأرضَ وتحرقُ قرىً أو تدفنها أحيانًا هي عندهم بردٌ وسلامٌ وكأنَّها نارُ خليلِ الله إبراهيم عليه السلام، وللقمرِ تأثيرٌ روحيٌّ فنوره يظلل المحبين ليرتعوا في نورِه غازلين أحلامهم.

إنَّ أحادية وجه القمر عندهم تُعَبِّر عن مبدئه الأوحد وهو السلام، بينما تفرق الأرض وأَدَ السلام.. إنَّ الحكيم يرى القمرَ داعيةَ سلامٍ لا يحيدُ عن دعوته.

هذا هو عالم القمر كما تخيله الحكيم، كاشفًا عن رؤية الإنسانِ لا الرائد الآلة، لكن هذه التعرية مِنْ القمريين لما تموج به الأرضُ مِنْ فسادٍ ودمارٍ نتاج أطماعِ أهلِها وأحقادهم.. هذه التعريةُ تُؤْلِمُ الشاعرَ مرهفَ الحسِّ، فلا يقدر على احتمال التناقض الصارخ بين ما يعمّ القمر مِنْ سلامٍ وأمانٍ والنقيض على الأرض، ويعجز عن الاحتمال فيصرخ: "كفى.. كفى.. كفى.." لتمثلَ هذه الصرخةُ المتألمةُ نهايةً طبيعةً للتواصلِ المباشر بينه وبين أهل القمر.

وإذا كانت الأرضُ زاخرةً بكلِّ ما يعوق السلام، ولم يتحرك إنسانُها وحده على طريقِ السلام، فلَمْ يبدأ أهلُ بابل في المرور بحراكٍ فكريٍّ اجتماعيٍّ إلا بعد تدخُّلٍ خارجيٍّ، هو ظهور " كوروبي" فتاة السماء. فهل يمكن التحرك نحو السلام دون تدخُّلٍ غير بشري؟

من نتائج الدرس

خَلُصَت الدراسة إلى أنَّ السلام والحق في الاختلاف صنوان لا ينفصلان، وتتبعت معوقات السلام ومظاهر اختلاله في نصوصٍ من المسرحين العربي والغربي، وتنحصر تلك المعوقات في محورين أساسيين:

أولهما: الحروب- وهو محور مشتركٌ في المسرحين العربي والغربي، لكنه:

يتخذ في المسرح الغربي شكل:

السعي لغزو الشعوب والبلاد الأخرى؛ من كلُّ مَلِكٍ يعتلي العرشَ تأسسًا على ضيق الأفق وضآلة المعرفة، والنفي المطلق للآخر ورفضه تمامًا مع تضخم الذات، وبحثا لحاكم عن مجد شخصي، مع رفضٍ لتداول السلطة وتتشبث بها، ورؤيته التشيئية للأشخاص، ومماهاة الآخر في الذات.

بينما سبب الحروب في المسرح العربي:

١- التنافس في صنع أدوات الدمار، وإدعاء التميز العنصري عن الأجناس والشعوب الأخرى، مما يؤدي أيضًا إلى العنصرية والعصبية المقيتة.

٢- الرؤية الاستعمارية الاستنزافية من رواد الفضاء لموارد الأراضي والأجرام السماوية الأخرى، مع السعي للاستئثار بها عن بقية شعوب الأرض، ولهذا أثره في استشراء روح الفرقة البغيضة، وتنامي عدوى الاستلاب والانتهاب، التي يُعَدُّ تباري القوى فيها بدايةً لتخلف الحضارات.

هذه الحروبِ الخانقةِ للسلامِ العلاقة بين أطرافها لم تتأسس على التكافؤ، بل على جدليةِ السيدِ والعبدِ، وتداول الأدوار، خلال صراعٍ ينقلُ المهزومَ إلى خانةِ العبيدِ، ويُكْسِبُ المنتصر سمت السادة، بحيث لا يعود مجالٌ لسلامٍ ولا وئامٍ.

استخدمُ "توفيق الحكيمُ" تقنيةَ تفسيرِ الحاضرِ والمستقبلِ من خلال التاريخ والتراث.

ثانيهما: رفض الاختلاف - وهو بدوره محورٌ مشتركٌ بين المسرحين العربي والشرقي، إلا إنَّ المظاهر المعبرة عنه تختلف بينهما:

إذ يظهر في المسرح الغربي عبر:

١- رفض ميول الآخرين المغايرة لميولنا.

٢- التمسك بالثبات ورفض التغيير، الذي ينحصر في: حيازة السلطة ورفض حراكها التبادلي؛ وهذه قمة الديكتاتورية ونفي الديمقراطية، والزهد في المحبوبة تكريسًا للواقع ورفضًا لتغييره؛ مما يعد تمسكًا بالعبودية للتنميط ورفضًا للتحرر من مختلف صورها.

٣- رفض اشتراك الآخر معي في الرأي نفسه؛ تعبيرًا عن رفض انتقاص السلطة المطلقة، ورفض المنازعة فيها.

٤- السعي لإثبات امتلاك الحقيقة المطلقة.

بينما يتجلى في المسرح العربي في:

١- رفض المنافس، والمنافسة غير الشريفة بالتفكير في قتل الخصم.

٢- شكل استنكار مسالك الأقران المغاير لمسالك الذات.

٣- رفض الرأي المخالف للرأي الذاتي. وتسفيه صاحبه والحجر عليه، وقمعه بالقوة والعنف مما يعني رفض الشراكة فيما يحسبه المتعصب حقًا مطلقًا له، ويعبر عن تبني ثقافة الغزو.

٤- إذابة هوية الآخر وتعميم هوية الذات.

كل هذا يرتبط بمفردات الثقافة الأحادية المكرسة للقمع والديكتاتورية، والرافضة للديمقراطية المعبرة عن التنوع والحوار.

والنتيجة الحتمية لكل ما تقدم هي: الفرقة، والتناحر، والتمزق المجتمعي.

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

النصوص المسرحية:

٢. شاعر على القمر: توفيق الحكيم، ملحقة بمجلس العدل، القاهرة، مكتبة مصر، دون تاريخ.

٣. هبط الملك في بابل: فريدريش دورنيمات، ترجمة أنيس منصور، القاهرة، ضمن مجلة المسرح، العدد ١٩، يوليو ١٩٦٥م، تصدر عن مسرح الحكيم بوزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٤. في قطرة ماء: يوسف عز الدين عيسى، ضمن مجموعة: نريد الحياة ومسرحيات أخرى، القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ.

دراسات باللغة العربية:

٥. أدب الخلفاء الراشدين: الدكتور/ جابر قميحة، القاهرة، دار الكتاب المصري، دون تاريخ.

٦. الأنا والآخر: الدكتور/ شاكر عبد الحميد، دراسة قدَّم بها للعدد ٢٧٤ مِنْ سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، أكتوبر ٢٠٠١م.

٧. البيان والتبيين: أبوعثمان عمرو بحر الجاحظ، تحقيق/ عبدالسلام هارون، الجزء الثاني، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر.

٨. تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر): عبد الرحمن بن خلدون، ج١ (المقدمة) القاهرة، هيئة قصور الثقافة، (مصورة عن طبعة بولاق ١٢٨٤هـ)، ٢٠٠٧م.

٩. تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الثالث، القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ.

١٠. الحب في القرآن: الدكتور/ محمود بن الشريف، القاهرة، الطبعة الرابعة، دار المعارف،٢٠٠٢م.
١١. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
١٢. دراسات في النثر العباسي في القرن الثالث الهجري: الأستاذ الدكتور/ سعيد حسين منصور، دون بيانات.
١٣. دور الجاحظ في نشر السلام الاجتماعي في المجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري: الدكتور/ أحمد أحمد فشل، بحث مقدم في ندوة عاطف غيث العلمية الثانية ١٩٩١م، ونشر ضمن أعمالها.
١٤. الدولة المصرية والرؤية العصرية- من فقه المراجعة إلى فكر المستقبل: مصطفى الفقي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م.
١٥. الذين قالوا لا: أنيس منصور، القاهرة، مجلة المسرح، وزارة الثقافة، ع ١٩، يوليو ١٩٦٥م.
١٦. رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الجزء الثاني، تحقيق/ عبد السلام هارون القاهرة، ١٩٦٥م.
١٧. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير): محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المجلد الثاني، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
١٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، القاهرة، دار الريان للتراث، دون تاريخ.
١٩. القيم الخلقية في الخطابة العربية: الدكتور/ سعيد حسين منصور، بيروت، منشورات جامعة بنى غازي، دون تاريخ.
٢٠. الكتاب المقدس، بيروت، دار الكتاب المقدس، دون تاريخ.
٢١. الليبرالية المتوحشة: الدكتور/ رمزي زكى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م.

٢٢. محمديات: الشيخ/ محمد مصطفى ضبش، الإسكندرية، دار لوران للطباعة والنشر، ١٩٨١م.
٢٣. المخرج المسرحي والقراءة المتعددة للنص: الدكتور/ أبو الحسن سلام، الإسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٣م.
٢٤. مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: الدكتور/ محمد نبيه حجاب، القاهرة، الطبعة الأولى، نهضة مصر، ١٩٦١م.
٢٥. من هدي القرآن: أمين الخولي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.
٢٦. من معالم الإسلام: محمد فريد وجدي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
٢٧. المنزع الوصفي عند الدكتور يوسف عز الدين عيسى: الدكتور/ أحمد محمد عوين، الإسكندرية، هيئة الفنون والآداب، دون تاريخ.
٢٨. نحو ثقافة مغايرة: الدكتور/ جابر عصفور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.
٢٩. هوامش على دفتر التنوير: الدكتور/ جابر عصفور، القاهرة، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

دراسات مترجمة عن لغة أجنبية:

٣٠. الانتخاب الثقافي: أجنر فوج، ترجمة: شوقي جلال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م.
٣١. التصدع العالمي، العالم الثالث يشب عن الطوق: ك. س. ستافريانوس، ترجمة: موسى الزغبي وعبد الكريم محفوض، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٨م.
٣٢. الطباع المتفردة والظروف: س.غ. بوتشاروف، ترجمة د/ جميل نصيف التكريتي، بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٥م.

فهرس المحتويات

- مقدمة ص ٩٣٥
- مدخل: كون السلام قرين الحق في الاختلاف ص ٩٣٥
- معوقات السلام ومظاهر اختلاله ص ٩٣٩
- ١- الحروب والسعي لغزو الشعوب الأخرى ص ٩٣٩
- ٢- رفض الاختلاف؛ ومن مظاهره: ص ٩٦١
- رفض ميول الآخرين المغايرة لميولنا ص ٩٦١
- رفض المنافس، والمنافسة غير الشريفة ص ٩٦٣
- شكل الاستنكار من الأقران ص ٩٦٥
- رفض الرأي المخالف ص ٩٦٧
- التمسك بالثبات ورفض التغيير ص ٩٦٩
- رفض اشتراك الآخر معي في الحق نفسه ص ٩٧٣
- إذابة هوية الآخر وتعميم هوية الذات ص ٩٧٩
- محصلة معوقات السلام هي: الفرقة ص ٩٨٠
- نتائج الدراسة ص ٩٨٣
- ثبت المصادر والمراجع ص ٩٨٥
- فهرس المحتويات ص ٩٨٨